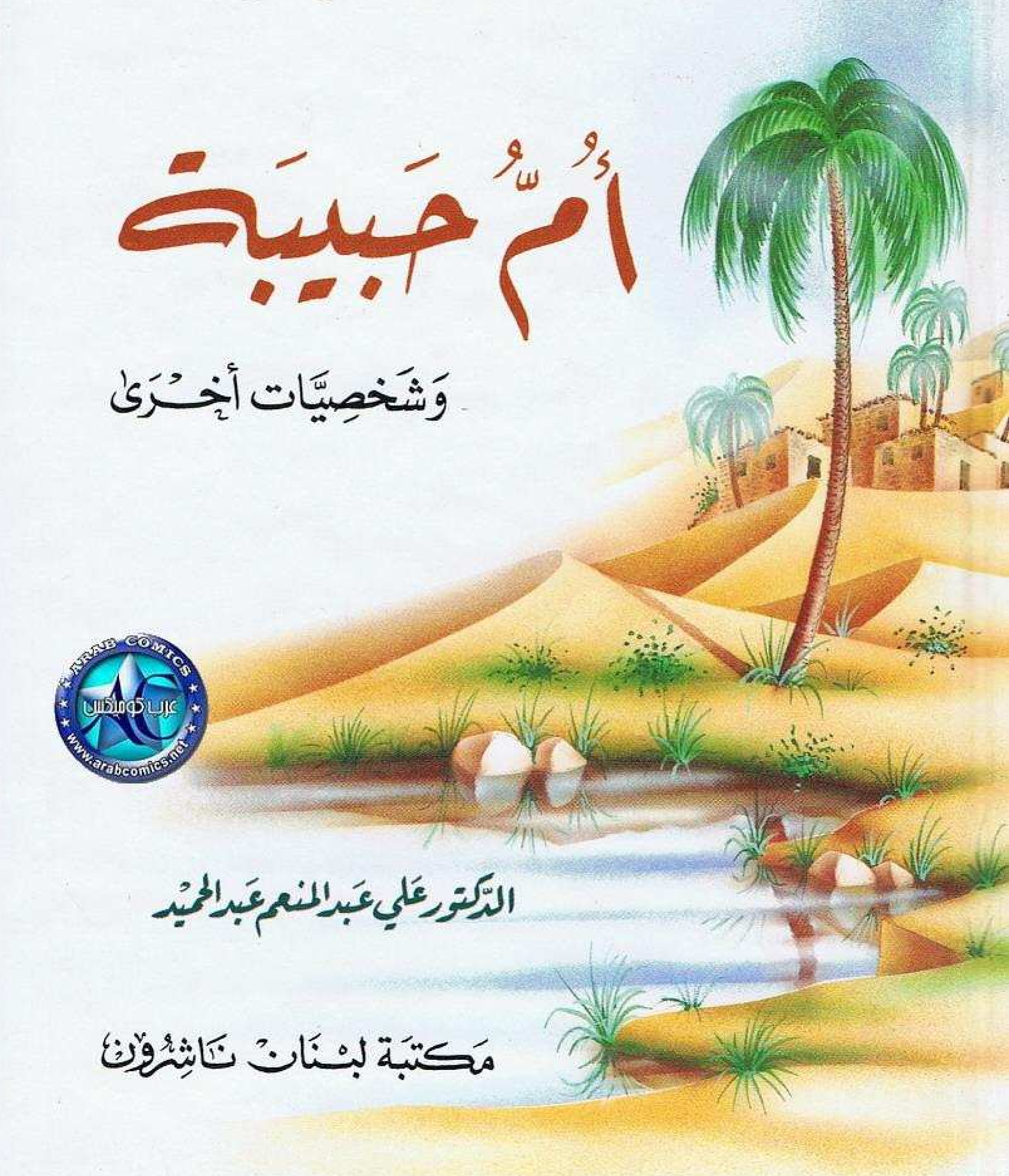
سلسلة رياض الإيمان

نَفَحات مِن سِيرَة الرَّسُول وَصَحبه

أُمُّ حَبيبَة

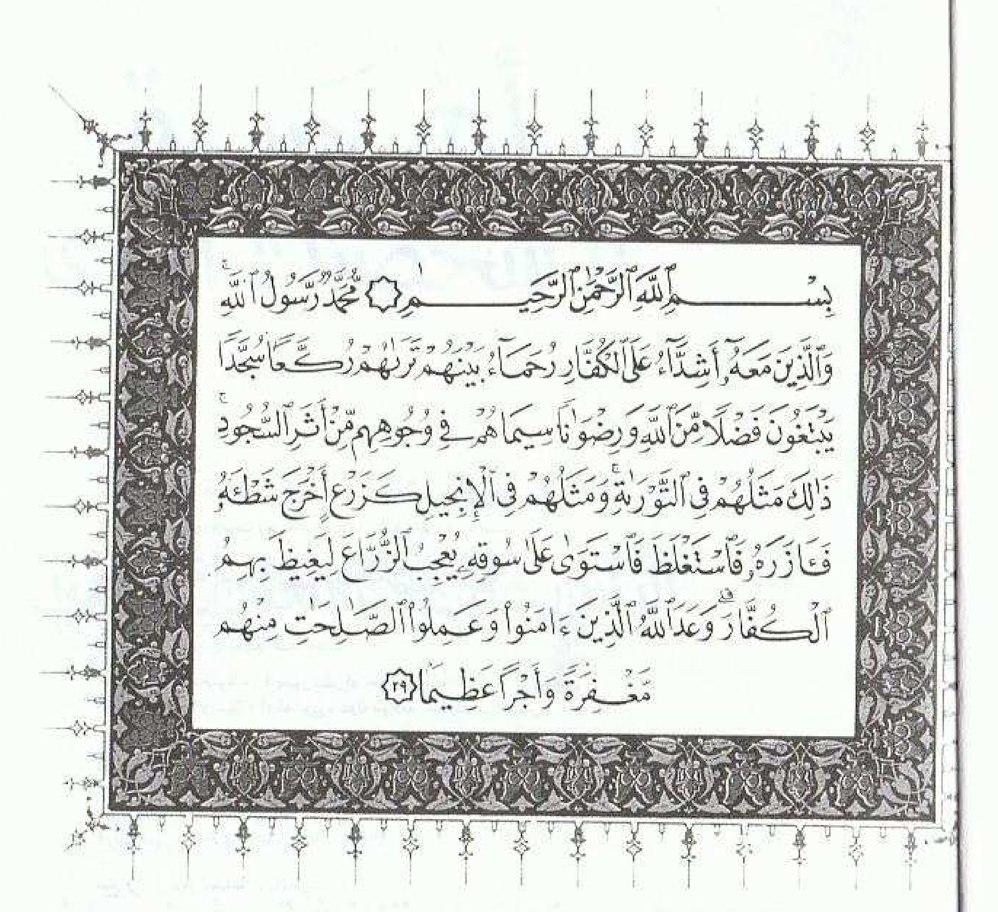
وَشَخصِيّات أُخرَى



الدّكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مَكتَبة لبنان ناشِرُون

أمّ حبيبة
و شخصيّات أخرى





نفحات من سيرة الرسول وصحبه

أمُّ حَبيبة و شخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف الدكتور على عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ)، شارع حسين واصف، ميدان المساحة، الدقي، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص. ب: ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٦

رقم الإيداع ١٠٠٧٥ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠٢٢٧-٦

طبع في دار نوبار للطباعة، بالقاهرة

صاحِبُ العِصابَة

(أبو دُجانَة)

ارْتَفَعَ صَوْتُ الإسْلامِ، وَشَقَّ نِداؤُهُ أَجْوازَ الفَضاءِ، وَتَناهى إلى مَسامِعِ الفارِسِ المَهيبِ، الَّذي عَرَفَتْهُ المَدينَةُ المُنَوَّرَةُ شُجاعًا كَريمًا، باسِلاً جَسورًا، يَحْمي الأَرْضَ، وَيُدافِعُ عَنِ العِرْضِ، يُخْشى بَأْسُهُ، وَيُرْجى عَطاؤُهُ وَنَيْلُهُ.

اِسْتَمَعَ « أبو دُجانَةَ سِماكُ بنُ خَرَشَةَ » إلى هَذا الصَّوْتِ الإلَهِيِّ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَأَشْرَقَ قَلْبُهُ بِنورِ اللهِ، وَآمَنَ الفارِسُ الرَّهيبُ إيمانَ الأَقْوياءِ، واطْمَأَنَّ إلى هذا الدِّينِ الجَديدِ، الَّذي لا يُمَيِّزُ بَيْنَ النّاسِ بِأَجْناسِهِمْ وَأَلْوانِهِمْ، وَلا بِفَقْرِهِمْ وَغِناهُمْ، وَلا بِحَسَبِهِمْ وَنَسَبِهِمْ، ولا بِقُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ؛ وَإِنَّما يَتَساوى فيهِ النّاسُ جَميعًا؛ فَكُلٌّ لَهُ

حُقوقٌ، وَعَلَيْهِ واجِباتٌ، وَيَمْتازُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِما يَعْمُرُ قُلوبَهُمْ مِنْ إيمانٍ، وَبِما يُثْمِرُ هَذا الإيمانُ مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ، يَنْفَعُ النّاسَ أَجْمَعينَ.

وَعَرَفَ الرَّسولُ ﷺ لِهَذا الفارِسِ المَهيبِ قَدْرَهُ، فَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَتَهُ، وَأَحَلَّهُ مَكانَتَهُ؛ وَقَرَّبَهُ مِنْهُ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْلأْ نَفْسَ الفارِسِ الخَزْرَجِيِّ غُرورًا، وَلَمْ يَدْفَعْهُ إلى الكِبْرِ وَالخُيَلاءِ، بَلْ كانَ يَغْشى المَجالِسَ مُطْرِقًا خاشِعًا، وَيَمْشي في دُروبِ المَدينَةِ غاضًّا بَصَرَهُ، لا يَكادُ يَرْفَعُهُ عَنِ الأَرْضِ، وَيَتَكَلَّمُ في وَداعَةٍ صافِيَةٍ. لَقَدْ خَشَعَتْ للهِ رُوحُهُ؛ فَفاضَتْ عَلى مَنْ حَوْلَها هُدوءًا وَسَكينَةً، وَأَمْنًا وَطُمَأْنينَةً.

وَمُنْذُ أَنْ أَسْلَمَ « أبو دُجانَةَ » الفارِسُ الخَزْرَجِيُّ - وَضَعَ سَيْفَهُ وَقُوَّتَهُ في سَبيلِ اللهِ؛ فَكانَ الشُّعْلَةَ الَّتي تُحْرِقُ الأَعْداءَ، وَكانَ الصّاعِقَةَ المُتَحَرِّكَةَ الَّتي تُدَمِّرُ صُفوفَهُمْ، وَتُمَزِّقُ شَمْلَهُمْ، فَلا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنَ الكُفّارِ الصُّمودَ

أَمامَهُ، وَلا يَجْرُؤُ عَلى التَّصَدّي لَهُ.

أَخْرَجَ الرَّسولُ ﷺ سَيْفَهُ في مَعْرَكَةِ أُحُد، وَقالَ لأَصْحابِهِ: «مَنْ يَأْخُذُ هذا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟»

فَقامَ إلَيْهِ «عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ»، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ: «اجْلِسْ.»

فَقامَ إلَيْهِ «عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ» فَأَعْرَضَ عَنْهُ الرَّسولُ القائِدُ. فَقامَ إلَيْهِ «الزُّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ» ثَلاثَ مَرّاتٍ، وَالرَّسولُ القائِدُ يُعْرِضُ عَنْهُ. فَقامَ إلَيْهِ «أَبو دُجانَةَ» وَقالَ: «وَما حَقُّهُ، يا رَسولَ اللهِ؟»

فَأَجابَهُ الرَّسولُ القائِدُ: «حَقُّهُ أَنْ تَضْرِبَ بِهِ وَجْهَ العَدُوِّ حَتّى يَنْحَني.»

فَقالَ «أَبو دُجانَةَ»: «أَنا آخُذُهُ بِحَقِّهِ، يا رَسولَ اللهِ.»

فَأَعْطاهُ إيّاهُ الرَّسولُ القائِدُ.

وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ تَواضُعِ «أَبي دُجانَةَ» وَإِطْراقِهِ – فَقَدْ

كانَ لَهُ في الحَرْبِ عِصابَةٌ حَمْراءُ، يَعْصِبُ بِها رَأْسَهُ، لِتَكونَ عَلامَةً فارِقَةً لَهُ بَيْنَ النّاسِ، كَما كانَ يَمْشي بَيْنَ الصُّفوفِ مُخْتالاً. فَلَمّا أَخَذَ سَيْفَ الرَّسولِ القائِدِ أَخْرَجَ عِصابَتَهُ، فاعْتَصَبَ بِها، فَقالَ النّاسُ: «لَقَدْ أَخْرَجَ ‹‹أَبو دُجانَة›› عِصابَةَ المَوْتِ!»

وَرَآهُ الرَّسولُ القائِدُ يَمْشي بَيْنَ الصُّفوفِ مُخْتالاً، فَقالَ:

«إنَّها لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُها اللهُ وَرَسولُهُ إلا في مِثْلِ هَذِهِ المَواقِفِ!»

وَراحَ «أَبو دُجانَةَ» يَضْرِبُ بِسَيْفِ الرَّسولِ القائِدِ؛ فَيُبَدِّدُ شَمْلَ المُشْرِكينَ؛ وَيُمَزِّقُ صُفوفَهُمْ، وَيَقْتُلُ كُلَّ مَنْ تَصَدّى لَهُ، وَالمُشْرِكونَ يَرَوْنَ عِصابَتَهُ فَيَفِرّونَ مِنْ أَمامِهِ، يَنْجونَ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ هذا السَّيْفِ البَتّارِ، وَمِنْ صاحِبِ هَذِهِ العِصابَةِ الحَمْراءِ، الَّذي يَحْمِلُ المَوْتَ في يَدِهِ لِكُلِّ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ.

وَأَبْصَرَ « أبو دُجانَةَ » فارِسًا يُحَمِّسُ الْمُشْرِكِينَ ، وَيَحُضُّهُمْ عَلى القِتالِ ، وَيوقِدُ نارَ الحَرْبِ ، فَعَمَدَ إِلَيْهِ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ ، فَإِذا هُوَ امْرَأَةٌ تُوَلْوِلُ وَتَصْرُخُ ، فَأَكْرَمَ « أبو دُجانَةَ » سَيْفَ الرَّسولِ القائِدِ أَنْ تُقْتَلَ بِهِ امْرَأَةٌ . لَقَدْ كانَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ « هِنْد » - زَوْجَةُ « أَبي سُفْيانَ » - تُشَجِّعُ المُشْرِكينَ ، وَتُثيرُ عَداوَتَهُمْ لِلإِسْلامِ والمُسْلِمينَ ، وَتَحُثُّهُمْ عَلى الثَّأْرِ لِقَتْلاهُمْ في غَزْوَةِ بَدْرٍ .

ظَلَّ « أَبو دُجانَةَ » يُعْمِلُ سَيْفَ الرَّسولِ القائِدِ في رِقابِ المشْرِكينَ ، حَتّى انْحَنى السَّيْفُ ، وَكَأَنَّهُ مِنْجَلٌ . وَكانَ « الزُّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ » يَرْقُبُهُ بَيْنَ الحِينِ وَالحِينِ ، كُلَّما سَنَحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ ، فَيَرى حُسْنَ بَلائِهِ ، وَشِدَّةَ إِمْعانِهِ في قَتْلِ المُشْرِكينَ ، فَيَزْدادُ بِهِ إِعْجابًا ، وَتَمْتَلِئُ نَفْسُهُ لَهُ إِكْبارًا ، وَيَقولُ :

« حَقًّا ! لَقَدْ أَخَذَ ‹‹ أَبو دُجانَةَ ›› السَّيْفَ بِحَقِّهِ . »

وَحينَ تَفَرَّقَ المُسْلِمونَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَلَمْ يَبْقَ

حَوْلَهُ إِلا عَدَدٌ قَليلٌ مِنَ المُقاتِلينَ المُؤْمِنينَ - كانَ « أَبو دُجانَةَ » يَتَصَدّى مَعَ « عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ » لِكَتائِبِ المُشْرِكينَ ، الَّتي تَبْذُلُ كُلَّ جَهْدِها لِتَخْلُصَ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ . وَ وَقَفَ « أَبو دُجانَةَ » تُرْسًا يَحْمي رَسولَ اللهِ ، وَيَتَلَقّى النَّبْلَ وَالسِّهامَ في ظَهْرِهِ ، وَيَقولُ : « نَفْسي دونَ نَفْسِكَ ، وَظَهْري دونَ ظَهْرِكَ ، وَعَيْني دونَ عَيْنِكَ ، يا رَسولَ اللهِ ! »

* * *

أَفْسَحَ اللهُ في الأَجَلِ « لِأَبي دُجانَةَ » ، فَشَهِدَ الغَزَواتِ كُلَّها مَعَ الرَّسولِ القائِدِ ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ واحِدَةٍ ، وَكانَ فيها جَميعًا الفارِسَ الَّذي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، وَالَّذي يَحْمِلُ في يَدِهِ المَوْتَ الزُّؤامَ .

فَلَمّا قُبِضَ رَسولُ اللهِ ﷺ ، وَأَصْبَحَ « أَبو بَكْرٍ » خَليفَةً ، وَارْتَدَّتْ بَعْضُ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الإِسْلامِ ، وَغَدا الإِسْلامُ مَحْصورًا في مَكَّةَ وَالمَدينَةِ وَالطّائِفِ - حينَئِذٍ

شَمَّرَ الخَليفَةُ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ، وَنَهَضَ مَعَهُ المُسْلِمونَ، يُحارِبونَ هَؤُلاءِ المُرْتَدّينَ، وَيَرُدّونَهُمْ إلى حَظيرَةِ الدِّينِ.

وَكانَ « مُسَيْلِمَةُ الكَذّابُ » وَقَوْمُهُ « بَنو حَنيفَةَ » أَقْوى المُرْتَدّينَ بَأْسًا، فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الخَليفَةُ « خالِدَ بْنَ الوَليدِ » في جَيْشٍ مِنَ المُسْلِمينَ، كانَ فيهِ « أبو دُجانَةَ » الفارِسُ صاحِبُ العِصابَةِ الحَمْراءِ.

وَتَلاحَمَتِ الجُيوشُ، وَتَصافَحَتِ السُّيوفُ، وَ« أبو دُجانَةَ » يَصولُ وَيَجولُ، حَتّى مادَتِ الأَرْضُ تَحْتَ أَقْدامِ المُرْتَدّينَ، وَامْتَلأَتْ بِالقَتْلى وَالأَشْلاءِ. فَأَسْرَعَ « بَنو حَنيفَةَ » إلى حَديقَتِهِمْ يَحْتَمونَ بِحُصونِها، وَيَخْتَفونَ خَلْفَ أَسْوارِها، وَيُمْطِرونَ المُسْلِمينَ وابِلاً مِنَ السِّهامِ وَالنِّبالِ.

كانَ « أبو دُجانَةَ » يَتَذَكَّرُ أَيّامَهُ الماضِيَةَ - تِلْكَ الأَيّامَ الَّتي قاتَلَ فيها تَحْتَ لِواءِ الرَّسولِ الأَمينِ. كانَتْ تَطوفُ بِنَفْسِهِ الذِّكْرَياتُ فَيَشْتَدُّ شَوْقُهُ إلى لِقاءِ حَبيبِهِ ﷺ،

وَيَحِنُّ إلى قُرْبِهِ، وَالارْتِواءِ مِنْ حَوْضِهِ. فَما إِنْ عَزَمَ القائِدُ « خالِدُ بْنُ الوَليدِ » عَلى الدَّفْعِ بِجَماعَةٍ مِنَ الأَبْطالِ المَغاويرِ لِفَتْحِ أَبْوابِ الحِصْنِ - حَتّى كانَ « أبو دُجانَةَ » في صَدْرِهِمْ.

حارَبَ « أبو دُجانَةَ » حَرْبًا عَنيفَةً، وَالمُرْتَدّونَ يُقابِلونَهُ كُتَلاً مُتَراصَّةً، فَيُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ، وَيُمَزِّقُ شَمْلَهُمْ - حَتّى يَسَّرَ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ فَتْحَ بابِ الحِصْنِ، وَتَدَفَّقَ الجَيْشُ الإِسْلامِيُّ داخِلَهُ؛ لِيَقْتُلَ مِنَ المُرْتَدّينَ ما يَرْبو عَلى العِشْرينَ أَلْفًا، مِنْ بَيْنِهِمْ « مُسَيْلِمَةُ الكَذّابُ »، حَتّى سُمِّيَتْ هَذِهِ الحَديقَةُ « حَديقَةَ المَوْتِ »، وَفي أَثْناءِ ذَلِكَ أُصيبَ « أبو دُجانَةَ » في رِجْلِهِ، فَلَمْ يُثْنِهِ ذَلِكَ عَنِ المُضِيِّ في القِتالِ، حَتّى أَثْخَنَتْهُ الجِراحُ، فَسَقَطَ شَهيدًا في سَبيلِ اللهِ، بَعْدَ أَنْ رَأى النَّصْرَ قَدْ أَجْراهُ اللهُ عَلى أَيْدي المُسْلِمينَ.

أيِّمُ العرب

(أمُّ سلمة)

جَمَعَتِ المَجْدَ مِنْ أطْرافِهِ : فَأبوها رَجُلٌ مِنْ بَني مَخْزوم ، مِنْ أشْرافِ قُرَيْشٍ المَعْدودينَ ، وأجْوادِها المَشْهودينَ ، وَقَدْ ذَهَبَ دونَهُمْ علي الدَّهْرِ بِلَقَبِ « زادِ الرَّكْبِ » ؛ فَقَدْ كانَ يَأبى عَلى مَنْ يُرافِقُهُ فى سَفَرٍ أنْ يَحْمِلَ زادًا ، وَيُعْنِي نَفْسَهُ بِهِ ، وَإنَّما هُوَ يَرْفَعُ عَنْهُ هَذا العِبْءَ وَيَكْفيهِ . وأمُّها عاتِكَةُ الكِنانيَّةُ ، مِنْ أعَزِّ قُرَيْشٍ نَسَبًا ، وأعْلاهُمْ جاهًا . وَزَوْجُها الأوَّلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الأسَدِ ، ابْنُ عَمَّةِ الرَّسولِ ﷺ ، وَأخوهُ مِنَ الرَّضاعَةِ ؛ فَقَدْ أرْضَعَتْهُما « ثُوَيْبَةُ » جارِيَةُ « أبي لَهَبٍ » .

كانَ زَوْجُها عَبْدُ اللهِ مِنَ السّابِقينَ إلى الإسْلامِ ، أسْلَمَ

قَبْلَ أنْ يُجاوِزَ عَدَدُ المُسْلِمينَ عَشَرَةً ، وَكَذَلِكَ كانَتْ « هِنْدٌ » مِنَ السّابِقاتِ إلى الإسْلامِ . واسْتَطاعَ الزَّوْجانِ أنْ يَكْتُما إسْلامَهُما حينًا مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَكِنْ ما إنْ ذاعَ إسْلامُهُما حَتّى صَبَّ عَلَيْهِما قَوْمُهُما ألوانًا مِنَ التَّعْذيبِ ، وَصُنوفًا مِنَ التَّنْكيلِ ، تَهُدُّ الجِبالَ هَدًّا ؛ وَيَصيرُ لَها الوِلْدانُ شيبًا ، فَصَبَرا عَلى ما نَزَلَ بِهِما ، وَاحْتَسَباهُ عِنْدَ اللهِ . وَلَمّا اشْتَدَّ التَّعْذيبُ ، وَأذِنَ الرَّسولُ ﷺ لأصْحابِهِ في الهِجْرَةِ إلى بِلادِ الحَبَشَةِ ، عِنْدَ النَّجاشِيِّ المَلِكِ الَّذي لا يُظْلَمُ أحَدٌ عِنْدَهُ - سارَعَ الزَّوْجانِ : عَبْدُ اللهِ وَهِنْدٌ إلى الهِجْرَةِ ، فَكانا مِنْ أوَّلِ المُهاجِرينَ إلَيْها . وَهُناكَ في الحَبَشَةِ وَضَعَتْ « هِنْدٌ » مَوْلودَها « سَلَمَةَ » وَبِهِ كُنِّيَتْ ، وَذاعَتْ كُنْيَتُها « أمُّ سَلَمَةَ » وَتَناقَلَها النّاسُ ، وَغَفَلوا عَنِ اسْمِها .

اسْتَقَرَّ الزَّوْجانِ في أرْضِ الحَبَشَةِ ، وَطابَتْ لَهُما الحَياةُ ؛ فَقَدْ شَعَرا بِالأمْنِ وَالأمانِ ، وَالرّاحَةِ والاطْمِئْنانِ ، وَلَمْ

يَأسَيا على ما خَلَّفاهُ في مَكَّةَ مِنْ بَيْتٍ شامِخٍ ، وَعِزٍّ باذِخٍ ، وَجاهٍ عَريضٍ ، وَمالٍ وَفيرٍ . . لَكِنَّ حُزْنَهما الَّذي كانَ يُنَغِّصُ عَلَيْهِما الحَياةَ كانَ لِبُعْدِهِما عَنْ مَهْبَطِ الوَحْيِ ، وَعَدَمِ قُرْبِهِما مِنَ الرَّسولِ الحَبيبِ ! فَما إنْ بَلَغَ المُسْلِمينَ أنَّ اللهَ قَدْ أعَزَّ الإسْلامَ وَأظْهَرَهُ بِحَمْزَةَ وَعُمَرَ - حَتّى سارَعَ بَعْضُ المُهاجِرينَ إلى العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ ؛ لِيَنْعَموا بِالقُرْبِ مِنَ الحَبيبِ ﷺ ، وَلِيَغْتَرِفوا مِنْ فَيْضِ عَطائِهِ ، وَيَنْهَلوا مِنْ عِلْمِهِ ، وَيَحْظَوْا بِتَأديبِهِ وَتَعْليمِهِ . وَكانَ الزَّوْجانِ - أبو سَلَمَةَ وَأمُّ سَلَمَةَ - في مُقَدِّمَةِ العائِدينَ .

وَلَمْ يَجِدِ العائِدونَ مَكَّةَ خَيْرًا مِمّا تَرَكوها ؛ فَقَدِ افْتَنَّ المُشْرِكونَ في التَّعْذيبِ افْتِنانًا لَمْ يَعْهَدوهُ مِنْ قَبْلُ ، وَابْتَكَروا مِنْ ضُروبِ التَّنْكيلِ ألْوانًا جَديدَةً ، وَقابَلوا جَهْرَ المُسْلِمينَ بِإسْلامِهِمْ بِهَجْمَةٍ قاسِيَةٍ عَنيفَةٍ ، انْطَلَقَتْ نارُها تَحْرِقُ المُسْتَضْعَفينَ مِنَ المُؤْمِنينَ ؛ كَيْ يَكونوا عِبْرَةً وَنَكالاً لِلآخَرينَ ، وَمَسَّتْ لَظاها - بِعُنْفٍ - غَيْرَ

المُسْتَضْعَفينَ ، وَلَيْسَ هُناكَ مِنْ مُجيرٍ ولا مُغيثٍ ، فَكَأنَّما اسْتَحالَتْ مَكَّةُ كُلُّها دارًا لِلتَّعْذيبِ ، يَغْدو فيها أبو جَهْلٍ وَيَروحُ ، وَيَقْدُمُ قَوْمَهُ وَهُوَ غَيْرُ رَشيدٍ !

وَأذِنَ الرَّسولُ ﷺ لأصْحابِهِ في الهِجْرَةِ إلى يَثْرِبَ (المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ) فَقَدْ أصْبَحَ فيها لِلإسْلامِ أنْصارٌ ، يُحِبّونَ مَنْ هاجَرَ إلَيْهِمْ ، وَيُحْسِنونَ اسْتِقْبالَهُمْ ، وَيَعْمَلونَ عَلى إيوائِهِمْ . . وَعَزَمَ أبو سَلَمَةَ عَلى أنْ يَكونَ وَزَوْجُهُ أمُّ سَلَمَةَ مِنَ المُهاجِرينَ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ ، وَلَكِنَّ هِجْرَتَهُما لَمْ تَكُنْ هَيِّنَةً مَيْسورَةً ، بَلْ كانَتْ مَأساةً مُرَوِّعَةً ، لا تَزالُ تَرْويها الأيّامُ عَلى الرَّغْمِ مِنْ تَقادُمِ العَهْدِ ، وَانْصِرامِ الزَّمانِ .

تَقولُ أمُّ سَلَمَةَ : « حينَ عَزَمَ أبو سَلَمَةَ عَلى الهِجْرَةِ إلى المَدينَةِ أعَدَّ بَعيرًا ، وَوَضَعَ الرَّحْلَ عَلَيْهِ ، وَرَكِبْتُهُ وَوَضَعَ سَلَمَةَ في حِجْري ، ثُمَّ أخَذَ بِمِقْوَدِ البَعيرِ . . وَانْطَلَقْنا في طَريقِنا ؛ فِرارًا بِدينِنا ، وَحِفاظًا عَلى أرْواحِنا ، وَلَكِنَّ

أَهْلي وَعَشيرَتي مِنْ بَني مَخْزوم رَأَوْنا ، فاعْتَرَضوا طَريقَنا ، وَأَخَذوا عَلَيْنا السَّبيلَ ، وَقالوا لَهُ :

« أَمّا نَفْسُكَ فَقَدْ غَلَبْتَنا عَلَيْها ، وَأَنْتَ حُرٌّ فيها . . اِذْهَبْ حَيْثُ تَشاءُ . أَمّا ابْنَتُنا فَما لَكَ شَأْنٌ بِها ، وَلَنْ نَتْرُكَها لَكَ ، تَجوبُ بِها البِلادَ ، وَتَرْحَلُ مِنْ مَكانٍ إِلى مَكانٍ ، لا يَسْتَقِرُّ لَكَ قَرارٌ ، وَلا يَهْنَأُ لَها مُقامٌ ! »

« ثُمَّ انْتَزَعوني مِنْهُ انْتِزاعًا ، وَمَعي طِفْلُنا سَلَمَةُ ، وَتَرَكوهُ وَشَأْنَهُ .

« وَلَمّا رَأى ذَلِكَ بَنو عَبْدِ الأَسَدِ ، أَهْلُ زَوْجي وَعَشيرَتُهُ - تَصَدَّوْا لَنا وَقالوا لأَهْلي : « وَاللهِ ، لَنْ نَتْرُكَ ابْنَنا سَلَمَةَ عِنْدَ صاحِبَتِكُمْ ، فَنَحْنُ أَوْلى بِتَرْبِيَتِهِ ، وَأَجْدَرُ بِتَنْشِئَتِهِ . »

« وَأَخَذَ الطَّرَفانِ يَتَجاذَبانِ طِفْلي ، عَلى مَرْأى مِنّي وَمَشْهَدٍ حَتّى انْخَلَعَتْ ذِراعُهُ ، وَمَضى بِهِ بَنو عَبْدِ الأَسَدِ !

هَكَذا في لَحَظاتٍ قَصيرَةٍ ، وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدَةً مُفَزَّعَةً مَهْمومَةً :

« زَوْجي أَخَذَ طَريقَهُ إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ فِرارًا بِدينِهِ وَعَقيدَتِهِ .

« وَابْني انْخَلَعَتْ ذِراعُهُ ، وَاخْتَطَفَهُ بَنو عَبْدِ الأَسَدِ ، وَمَضَوْا بِهِ مُحَطَّمًا مُرَوَّعًا . . أَمّا أَنا فَقَدْ أَخَذَني أَهْلي بَنو مَخْزوم فَجَعَلوني عِنْدَهُمْ . . لا يَهْدَأُ لي بالٌ ، وَلا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ !

« لَبِثْتُ عَلى ذَلِكَ عامًا أَوْ قَريبًا مِنْهُ : أَخْرُجُ كُلَّ صَباحٍ إِلى المَكانِ الَّذي شَهِدَ مَأْساتَنا ، تَجْري أَحْداثُها أَمامَ عَيْنَيَّ ، فَيَنْفَطِرُ قَلْبي عَلى ابْني وَزَوْجي ، وَتَقْطُرُ نَفْسي مَرارَةً وَغَمًّا ، وَتَنْهَمِرُ دُموعي حُزْنًا وَأَسًى . . وَلا أَبْرَحُ المَكانَ حَتّى يَحُلَّ المَساءُ !

« وَذاتَ يَوْمٍ رَآني واحِدٌ مِنْ قَوْمي : رَأى جِسْمًا هَزيلًا ناحِلًا ، هَدَّهُ الحُزْنُ ، وَبَراهُ الحَنينُ ؛ فَرَقَّ قَلْبُهُ لي ،

وأشْفَقَ عَلَيَّ ، فَذَهَبَ إلى القَوْمِ يَسْتَلين قُلوبَهُمُ القاسِيَةَ ، وَيَسْتَدِرُّ عَطْفَهُمْ ، وَيَقولُ لَهُمْ : ‹‹ ألا تَدعونَ هٰذِهِ المِسْكينَةَ تَرْحَلُ إلى حَيْثُ زَوْجُها ؟ لَقَدْ فَرَّقْتُمْ بَيْنَها وَبَيْنَ زَوْجِها ، وَعَدا عَلَيْها بَنو عَبْدِ الأسَدِ فَأخَذوا ابْنَها ، وَقَدْ مَسَّها الضُّرُّ مَسًّا غَيْرَ رَفيقٍ . . اُتْرُكوها تَرْحَلْ وَتَلْحَقْ بِزَوْجِها . ››

« وَما زالَ بِهِمْ يُحاوِرُهُمْ وَيُناقِشُهُمْ ، حَتّى لانَتْ قُلوبُهُمْ بَعْدَ غِلْظَةٍ ، وَرَقَّتْ بَعْدَ قَسْوَةٍ ، فَقالوا لي : ‹‹ الْحَقي بِزَوْجِكِ إنْ شِئْتِ ! ››

« وَلأوَّلِ مَرَّةٍ – مُنْذُ عامٍ – بَرَقَتْ في نَفْسي بارِقَةُ أمَلٍ ، وَرَفَّتْ عَلى شَفَتَيَّ ابْتِسامَةٌ واهِنَةٌ ضَعيفَةٌ . . لَكِنْ سَرْعانَ ما خَبَتِ البارِقَةُ لِتُفْسِحَ مَجالاً لِلانْقِباضِ ، وَضاعَتِ البَسْمَةُ لِتُخْلِيَ المَكانَ لِلْعُبوسِ !

« كَيْفَ أخْرُجُ وَقِطْعَةٌ مِنْ كَبِدي لا تَزالُ في مَكَّةَ ، تَقْبَعُ حَزينَةً مَهيضَةً فى دِيارِ بَني أسَدٍ ؟ كَيْفَ ألْقى زَوْجي

وَقَدْ خَلَّفْتُ طِفْلَنا بَيْنَ أحْضانِ المُشْرِكينَ ؟ إنَّ اللَّوْعَةَ تُمَزِّقُ صَدْري ، وَتُقَطِّعُ نِياطَ قَلْبي ! وَوَلَّيْتُ وَجْهي نَحْوَ رَبّي ، وَدَعَوْتُهُ أنْ يَلُمَّ شَمْلي ، وَيَجْمَعَ أسْرَتي !

« وَقَيَّضَ اللهُ مَنْ يَسْعى بَيْني وَبَيْنَ بَني أسَدٍ ، حَتّى رَدّوا عَلَيَّ ابْني ، لأرْحَلَ بِهِ إلى زَوْجي ، فَأعْدَدْتُ بَعيري ، وَوَضَعْتُ ابْني في حِجْري ، وَانْطَلَقْتُ في طَريقي إلى المَدينَةِ ، أريدُ زَوْجي ، وَلَيْسَ مَعي مِنْ خَلْقِ اللهِ أحَدٌ ! وَلَمْ أشَأْ أنْ أسْتَأْنِيَ في مَكَّةَ حَتّى أجِدَ قافِلَةً مُسافِرَةً ، فَأمْشِيَ بِصُحْبَتِها ، خَشْيَةَ أنْ يَجِدَّ في الأمورِ جَديدٌ ، أوْ يَرْجِعَ النّاسُ في قَرارِهِمْ .

« وَما إنْ بَلَغْتُ ‹‹ التَّنْعيمَ ›› خارِجَ مَكَّةَ بِأمْيالٍ ثَلاثَةٍ – حَتّى لَقِيَني « عُثْمانُ بْنُ طَلْحَةَ » وَكانَ عَلى دينِ قَوْمِهِ ، لَمْ يَدْخُلْ في الإسْلامِ بَعْدُ ، فَقالَ لي : ‹‹ إلى أيْنَ يا بْنَةَ زادِ الرَّكْبِ ؟ ››

« قُلْتُ : ‹‹ أريدُ زَوْجي . ››

« قالَ عُثْمانُ : ‹‹ أوَ ما مَعَكِ أحَدٌ ؟ ››

« قُلْتُ : ‹‹ لا ، إلا الله ، ثُمَّ ابْني هَذا . ››

« قالَ عُثْمانُ : ‹‹ وَرَبِّ الكَعْبَةِ ، لَنْ أتْرُكَكِ حَتَّى تَلْحَقي بِزوجِكِ ، وَتَبْلُغي مَأمَنَكِ . ››

« ثُمَّ أخَذَ بِمِقْوَدِ بَعيري ، وَانْطَلَقَ بِنا في الطَّريقِ إلى المَدينَةِ ، فَواللهِ ما صَحِبْتُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ كانَ أشْرَفَ مِنْهُ وَلا أكْرَمَ . . كانَ إذا بَلَغْنا مَنْزِلاً مِنَ المَنازِلِ يَحْسُنُ أنْ نُصيبَ فيهِ قِسطًا مِنَ الرّاحَةِ - يُنيخُ بَعيري ، ثُمَّ يَسْتأخِرُ حَتَّى أنزِلَ عَنْهُ ، فَإذا نَزَلْتُ عادَ إلَيْهِ ، فَحَطَّ عَنْهُ الرَّحْلَ ، ثُمَّ قادَهُ إلى شَجَرَةٍ فَرَبَطَهُ فيها ، وَذَهَبَ إلى شَجَرَةٍ أخْرى بَعيداً عَنّي لِيَسْتَريحَ . . فَإذا اسْتَوْفَيْنا حَظَّنا مِنَ الرّاحَةِ عَمَدَ إلى الرَّحْلِ فَوَضَعَهُ عَلى ظَهْرِ البَعيرِ ، ثُمَّ اسْتأخَرَ ، وَقالَ ارْكَبي . . فَإذا ما اسْتَوَيْتُ عَلى ظَهْرِ البَعيرِ أخَذَ بِخِطامِهِ وَقادَهُ .

« وَلَبِثْنا هَكَذا حَتَّى أشْرَفْنا عَلى قَرْيَةِ ‹‹ قُباء ›› ، وَبانَتْ مَعالِمُها ، فَقالَ لي : ‹‹ زَوْجُكِ في هَذِهِ القَرْيَةِ ، فَالْحَقي بِهِ سالِمَةً غانِمَةً . ››

« وَانْصَرَفَ راجِعًا إلى مَكَّةَ . »

وَكانَتْ « أمُّ سَلَمَةَ » أوَّلَ ظَعينَةٍ (زَوْجَة) دَخَلَتِ المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ مُهاجِرَةً ، كَما كانَتْ أوَّلَ مُهاجِرَةٍ إلى الحَبَشَةِ ، كَما كانَ زَوْجُها « أبو سَلَمَةَ عَبْدُ اللهِ الأسَدِيُّ » أوَّلَ مُهاجِرٍ إلى المَدينَةِ .

* * *

وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتيتُ ، وَنَعِمَتِ الأسْرَةُ بِاجْتِماعِها ، وَبِقُرْبِها مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ هِجْرَتِهِ . وَعَكَفَتْ « أمُّ سَلَمَةَ » عَلى تَرْبِيَةِ صِغارِها ، وَإعْدادِهِمْ لِيَكونوا لَبِناتٍ قَوِيَّةً في صَرْحِ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ . وَتَفَرَّغَ زَوْجُها لِلْعَمَلِ في سَبيلِ اللهِ وَإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ، وَشَهِدَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ

غَزْوَةَ بَدْرٍ ، وَظَفِرَ مَعَ أَصْحابِهِ بِالنَّصْرِ ، وَشَهِدَ غَزْوَةَ أُحُدٍ وَجُرِحَ فيها جُرْحًا بالِغًا ، ما لَبِثَ أَنِ الْتَأَمَ ، وَلَكِنَّهُ كانَ الْتِئامًا سَطْحِيًّا ؛ إِذْ لَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حَتَّى نَغِرَ عَلَيْهِ وانْفَتَحَ ، فَلَزِمَ أَبو سَلَمَةَ الفِراشَ !

وَقامَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلى تَمْريضِهِ وَرِعايَتِهِ . وَفي مَرَّةٍ قالَ لَها : « يا أُمَّ سَلَمَةَ ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ : ‹‹ مَنْ أَصابَتْهُ مُصيبَةٌ فاسْتَرْجَعَ (قال : إِنّا للهِ وإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ) ثُمَّ قالَ : ‹‹ اللَّهُمَّ عِنْدَكَ احْتَسَبْتُ مُصيبَتي هَذِهِ . . اللَّهُمَّ اخْلُفْني خَيْرًا مِنْها ›› - إلا أعطاهُ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) . »

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يَعودُهُ ، وَيَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ ، وَيَدْعو لَهُ . وَبَيْنَما كانَ الرَّسولُ الكَريمُ يَزورُهُ ذاتَ مَرَّةٍ حَضَرَتْهُ الوَفاةُ ، فَأَسْبَلَ الرَّسولُ بِيَدَيْهِ الكَريمَتَيْنِ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلى السَّماءِ ، وَدَعا اللهَ أَنْ يُفْسِحَ لَهُ في جَنَّتِهِ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، وَأَنْ يَجْعَلَ قَبْرَهُ رَوْضَةً مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ ، وَأَنْ يَخْلُفَهُ في

عَقِبِهِ .

أَمّا « أُمُّ سَلَمَةَ » فَتَذَكَّرَتْ ما رَواهُ لَها زَوْجُها ، وَرَفَعَتْ يَدَيْها إِلى رَبِّها ضارِعَةً ، وَقالَتْ : « اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصيبَتي . . »

وَلَمْ يُطاوِعْها قَلْبُها ، وَلَمْ تَطِبْ نَفْسُها لِتُكْمِلَ الدُّعاءَ !

فَمَنْ يَكونُ خَيْرًا مِنْ أَبي سَلَمَةَ ؟

إِنَّها لا تَجِدُ خَيْرًا مِنْهُ غَيْرَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَهِيَ لا تَطْمَحُ إِلى أَنْ تَكونَ زَوْجَةً لَهُ ﷺ ، وَلا تَقْوى عَلى التَّطَلُّعِ إِلى ذَلِكَ . .

وَلَكِنَّها بَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ وَتَفْكيرٍ وَجَدَتْ لِسانَها ، فَأَكْمَلَتِ الدُّعاءَ !

* * *

حَزِنَ الرَّسولُ ﷺ عَلى أَبي سَلَمَةَ حُزْنًا شَديدًا ، وَكَذَلِكَ كانَ حُزْنُ الصَّحابَةِ عَلَيْهِ قَوِيًّا بالِغًا ، وَأَشْفَقوا

عَلى أمِّ سَلَمَةَ ؛ فَلَمْ يَكُنْ مَعَها مِنْ أهْلِها وَعَشيرَتِها أحَدٌ في المَدينَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَها مَنْ يُؤْنِسُ وَحْشَتَها غَيْرُ صِبْيَتِها الصِّغارِ : سَلَمَة ، وَعُمَر ، وَزَيْنَب ، وَبُرَّة – فَأطْلَقوا عَلَيْها « أيِّمَ العَرَبِ » .

وَشَعَرَ كِبارُ الصَّحابَةِ بِحَقِّها عَلَيْهِمْ ، وَواجِبِهِمْ نَحْوَها ؛ فَبَعَثَ إلَيْها أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَخْطُبُها لِنَفْسِهِ ، فَرَدَّتْهُ رَدًّا رَفيقًا . وَكَذَلِكَ سَعى إلَيْها عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَرَدَّتْهُ رَدًّا رَفيقًا كَذَلِكَ ، وَلَبِثَتْ تَنْتَظِرُ قَضاءَ اللهِ فيها .

ثُمَّ بَعَثَ إلَيْها رَسولُ اللهِ ﷺ مَنْ يَخْطُبُها لَهُ ؛ فَتَمَنَّتْ لَوْ يُتاحُ لَها هَذا الشَّرَفُ الرَّفيعُ ، وَلَكِنَّها خَشِيَتْ أنْ لا تَسْتَطيعَ أنْ تَمْلأَ مَكانَها بِجِوارِ عائِشَةَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ ، وَحَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ، وَقَدْ جاوَزَتْ سِنَّ الشَّبابِ ، وَلَها عِيالٌ صِغارٌ ؛ فَبَعَثَتْ إلى الرَّسولِ ﷺ تَقولُ لَهُ : « إنَّ فِيَّ خِلالاً (صِفاتٍ) ثَلاثًا : فَأنا امْرَأةٌ شَديدَةُ الغَيْرَةِ ، وَأخْشى أنْ تَرى مِنِّي ما يُغْضِبُكَ ، فَيُعَذِّبَني اللهُ بِذَلِكَ .

وَأنا امْرَأةٌ دَخَلَتْ في السِّنِّ (جاوَزَتْ سِنَّ الزَّواجِ) . وَأنا امْرَأةٌ ذاتُ عِيالٍ . »

فَرَدَّ عَلَيْها الرَّسولُ ﷺ بِقَوْلِهِ : « أمّا ما ذَكَرْتِ مِنْ غَيْرَتِكِ فَأدْعو اللهَ أنْ يُذْهِبَها عَنْكِ . وَأمّا السِّنُّ فَقَدْ أصابَني ما أصابَكِ ، وَأنا أكْبَرُ مِنْكِ . وَأمّا عِيالُكِ فَهُمْ عِيالي . »

وانْتَقَلَتْ « أمُّ سَلَمَةَ » إلى بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ لِتَكونَ لَهُ زَوْجًا ، وَلِتُصْبِحَ أمًّا لِلْمُؤْمِنينَ جَميعًا ، وَلَيْسَتْ أمًّا لِسَلَمَةَ وَحْدَهُ ! وأخْلَفَها اللهُ خَيْرًا مِنْ أبي سَلَمَةَ !

* * *

مُنْذُ أنْ خَطَتْ أمُّ سَلَمَةَ أولى خُطُواتِها في بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ بَدا واضِحًا أنَّها تَعْرِفُ قَدْرَ نَفْسِها ، وَتَأبى أنْ يَمَسَّ أحَدٌ كَرامَتَها ، أوْ يَنالَ مِنْ كِبْرِيائِها ؛ فَقَدْ زَفَّها إلى هَذا البَيْتِ الكَريمِ مَجْدٌ قَديمٌ مَوْروثٌ ، يُعانِقُهُ مَجْدٌ حَديثٌ

مُكْتَسَبٌ .

لَقَدْ أَنْكَرَتْ عَلى عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ أَنْ يَتَدَخَّلَ في العَلاقَةِ بَيْنَ الرَّسولِ ﷺ وَزَوْجاتِهِ ، وَقالَتْ لَهُ : - « عَجَبًا لَكَ يا بْنَ الخَطّابِ ! قَدْ دَخَلْتَ في كُلِّ شَيْءٍ ، حَتّى تَبْتَغِي أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ الرَّسولِ وَأَزْواجِهِ . »

وَكانَ الوَحْيُ الكَريمُ يَتَنَزَّلُ في بَيْتِ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ، وَكانَتْ تَتيهُ بِذَلِكَ عَلى غَيْرِها مِنْ نِساءِ النَّبِيِّ وَتَتَباهى ، حَتّى جاءَتْ « أُمُّ سَلَمَةَ بِنْتُ زادِ الرَّكْبِ » فَتَنَزَّلَ الوَحْيُ عَلى الرَّسولِ ﷺ وَهُوَ في بَيْتِها بِقَوْلِ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) :

﴿ وَآخَرونَ اعْتَرَفوا بِذُنوبِهِمْ خَلَطوا عَمَلاً صالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسى اللهُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ . ﴾

وَلِهَذِهِ الآيَةِ قِصَّةٌ ، فَحينَ حاصَرَ الرَّسولُ وَالمُسْلِمونَ بَني قُرَيْظَةَ ، وَأَجْهَدَهُمُ الحِصارُ ، وَضاقوا بِهِ - بَعَثوا إِلى

الرَّسولِ ﷺ ، يَطْلُبونَ مِنْهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ « أَبا لُبابَةَ » - وَكانَ لَهُمْ صاحِبًا - لِيَتَشاوَروا مَعَهُ . فَلَمّا جاءَهُمْ نَهَضَ إِلَيْهِ رِجالُهُمْ ، وَبَكَتْ في وَجْهِهِ نِساؤُهُمْ ، وَسَأَلوهُ : « أَتَرى يا « أَبا لُبابَةَ » أَنْ نَنْزِلَ عَلى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ »

قالَ لَهُمْ : « نَعَمْ . »

قالوا : « تُرى ماذا يَكونُ حُكْمُهُ ؟ »

فَأَجابَ « أَبو لُبابَةَ » : « إِنَّهُ . . (وَأَشارَ إِلى حَلْقِهِ) يَعْني الذَّبْحَ . »

وَأَدْرَكَ « أَبو لُبابَةَ » أَنَّهُ بِهَذا القَوْلِ قَدْ خانَ اللهَ وَرَسولَهُ ، فَلَمْ يَعُدْ إِلى الرَّسولِ ﷺ ، وَإِنَّما انْصَرَفَ مُسْرِعًا إِلى المَسْجِدِ ، حَيْثُ رَبَطَ نَفْسَهُ في سارِيَةٍ مِنْ سَوارِيهِ ، وَأَقْسَمَ أَنْ لا يُفَكَّ رِباطُهُ حَتّى يَتوبَ اللهُ عَلَيْهِ .

وَحينَ اسْتَبْطَأَ الرَّسولُ الكَريمُ عَوْدَتَهُ سَأَلَ عَنْهُ ، فَأَخْبَروهُ بِأَمْرِهِ ، فَقالَ : « أَما إِنَّهُ لَوْ جاءَني لاسْتَغْفَرْتُ

لَهُ ، لَكِنَّهُ وَقَدْ فَعَلَ فَما أنا بِالَّذي يُطْلِقُهُ مِنْ مَكانِهِ حَتَّى يَتوبَ اللهُ عَلَيْه . »

وَكانَتِ امْرَأَتُهُ تَأْتيهِ في وَقْتِ كُلِّ صَلاةٍ ، فَتُطْلِقُهُ لِيُؤَدِّيَ الصَّلاةَ ، ثُمَّ يَعودُ كَما كانَ ، حَتَّى نَزَلَتْ فيهِ هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ ، في بَيْتِ « أُمِّ سَلَمَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) .

فَقالَتْ ، وَقَدْ سَمِعَتِ الرَّسولَ الحَبيبَ يَضْحَكُ : « مِمَّ تَضْحَكُ ، يا رَسولَ اللهِ ؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ . »

فَأَجابَها الرَّسولُ ﷺ : « لَقَدْ تابَ اللهُ عَلى ‹‹ أبي لُبابَةَ ›› . »

قالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : « أَأَخْرُجُ لأُبَشِّرَهُ ، يا رَسولَ اللهِ ؟ »

قالَ ﷺ : « نَعَمْ . »

فَرَفَعَتْ « أُمُّ سَلَمَةَ » السِّتْرَ ، وَ وَقَفَتْ عَلى بابِ بَيْتِها ، وَقالَتْ : « يا ‹‹ أَبا لُبابَةَ ›› ، أَبْشِرْ فَقَدْ تابَ اللهُ عَلَيْكَ ! »

وَتَجَمَّعَ بَعْضُ المُسْلِمينَ لِيُطْلِقوهُ ، وَلَكِنَّهُ أَبى إلا أنْ

يُطْلِقَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ ، فَلَمّا خَرَجَ الرَّسولُ الكَريمُ لِصَلاةِ الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ بِيَدَيْهِ الشَّريفَتَيْنِ .

* * *

وَفي العامِ السّادِسِ مِنَ الهِجْرَةِ كانَ لأُمِّ سَلَمَةَ دَوْرٌ جَليلٌ ، لَمْ يَنْسَهُ لَها تاريخُ الإسْلامِ ، عَلى مَرِّ الأيّامِ : فَقَدْ كانَتْ تَصْحَبُ رَسولَ اللهِ ﷺ لأداءِ العُمْرَةِ ، فَلَمّا صَدَّ المُشْرِكونَ الرَّسولَ وَمَنْ مَعَهُ عَنِ البَيْتِ العَتيقِ ، وَكانَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ ، أَمَرَ الرَّسولُ ﷺ المُسْلِمينَ بِنَحْرِ الهَدْيِ ، فَلَمْ يَسْتَجيبوا لَهُ ، وَلَمْ يُطيعوا أَمْرَهُ ، فَدَخَلَ عَلى « أُمِّ سَلَمَةَ » غاضِبًا ، ضائِقًا صَدْرُهُ . . فَقالَتْ لَهُ :

« ما الَّذي يُغْضِبُكَ ، يا رَسولَ اللهِ ؟ »

قالَ : « لَقَدْ أَمَرْتُ المُسْلِمينَ أَنْ يَذْبَحوا هَدْيَهُمْ ، وَيَحْلِقوا رُءوسَهُمْ ، فَما قامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ . . لَقَدْ كَرَّرْتُ عَلَيْهِمْ أَمْري ثَلاثَ مَرّاتٍ فَما اسْتَجابَ مِنْهُمْ أَحَدٌ . »

قالَتْ « أمُّ سَلَمَةَ » : « أتُحِبُّ ذَلِكَ يا رَسولَ اللهِ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . »

قالَتْ : « أُخْرُجْ وَلا تُكَلِّمْ مِنْهُمْ أحَدًا ، وانْحَرْ هَدْيَكَ ، وادْعُ حالِقَكَ فاحْلِقْ رَأسَكَ . »

فَأصْغى رَسولُ اللهِ لِمَشورَتِها ، واسْتَصْوَبَ رَأيَها ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِها فَصَنَعَ ما أشارَتْ بِهِ . . وَإذا المُسْلِمونَ يَقومونَ مُسْرِعينَ ، فَيَقْتَدونَ بِهِ : يَنْحَرونَ هَدْيَهُمْ ، وَيَحلِقُ بَعْضُهُمْ رَأسَ بَعْضٍ ، وَيَنْدَمونَ عَلى ما بَدَرَ مِنْهُمْ ، وَيَسْتَغْفِرونَ اللهَ رَبَّهُمْ .

وَصَحِبَتْ « أمُّ سَلَمَةَ » الرَّسولَ ﷺ في غَزْوِهِ لِخَيْبَرَ ، وَفي فَتْحِهِ مَكَّةَ ، وَحِصارِهِ الطّائِفَ ، وَغَزْوَةِ ثَقيفٍ وَهَوازِنَ . . ثُمَّ عادَتْ إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ في السَّنَةِ الثّامِنَةِ مِنَ الهِجْرَةِ .

وَظَلَّتْ يَعْرِفُ الرَّسولُ الكَريمُ لَها قَدْرَها ، وَيُعْلي

مَكانَتَها ، حَتَّى انْتَقَلَ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعْلى .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ اعْتَزَلَتْ أمُّ سَلَمَةَ « الحياةَ العامَّةَ ، وَلَمْ تَخُضْ في شَأنٍ مِنْ شُئونِها ، حَتَّى انْتَقَلَتْ إلى بارِئِها ، بَعْدَ أنْ جاءَها نَعْيُ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، فامْتُحِنَتْ بِهِ امْتِحانًا شَديدًا ، وَصَلَّى عَلَيْها الصَّحابِيُّ الجَليلُ « أبو هُرَيْرَةَ » وَشَيَّعَها المُسْلِمونَ إلى البَقيعِ ، حَيْثُ دَفَنوها ، وَكانَتْ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْ نِساءِ النَّبِيِّ ﷺ ، وأصْبَحَ أمَّهاتُ المُؤْمِنينَ بَعْدَها تاريخًا وَذِكْرى .

أُمُّ حَبيبَةَ

(رَمْلَةُ بِنتُ أبي سُفْيانَ)

الْتقى الرِّجالُ الثَّلاثَةُ، وَتَحدَّثَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في أمْرِ هَذا الدِّينِ الَّذي يَدينُ بِهِ قَوْمُهُمْ، وَفي شَأْنِ هَذِهِ الآلِهَةِ الَّتي يَتبَرَّكونَ بِها، وَيَتَقَرَّبونَ إلَيْها، وَلا يَقْطَعونَ أمْرًا دونَ مَشورَتِها، وَهِيَ حِجارَةٌ صَمّاءُ، لا تُبْصِرُ وَلا تَسْمَعُ، وَلا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ. هَلْ عَمِيَتْ عُيونُ قَوْمِهِمْ فَهُمْ لا يُبْصِرونَ؟ هَلْ طاشَتْ عُقولُهُمْ فَهُمْ لا يَفْقَهونَ؟ إنَّ فيهِمْ رِجالاً أصْحابَ عَقْلٍ رَشيدٍ، وَرَأْيٍ سَديدٍ، فَلِماذا لا يُفَكِّرونَ؟ إنَّهُمْ يُقَلِّدونَ آباءَهُمْ وَأجْدادَهُمْ، أوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدونَ؟ إنَّ عَلَيْنا أنْ نَبْحَثَ عَنْ دينٍ، تَسْتَريحُ إلَيْهِ ضَمائِرُنا، وَتَسْتَقِرُّ مَعَهُ

قُلوبُنا، وَتَسْكُنُ إلَيْهِ نُفوسُنا.

كانَ هَؤُلاءِ الرِّجالُ هُمْ: عُثْمانَ بْنَ الحُوَيْرِث، وَزَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَعُبَيْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ. فَأمّا «عُثْمانُ» فَقَدْ دَخَلَ في دينِ النَّصْرانِيَّةِ (المَسيحِيَّةِ) وَاطْمَأنَّ قَلْبُهُ إلَيْهِ، وَأمّا «زَيْدٌ» فَقَدْ راحَ يَتَعَبَّدُ عَلى الحَنيفِيَّةِ، مِلَّةِ إبْراهيمَ (عَلَيْهِ السَّلامُ)، وَقَدْ ماتَ الرَّجُلانِ قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ، وَأمّا «عُبَيْدُ اللهِ» فَقَدْ بَقِيَ حائِرًا يَتَرَقَّبُ، حَتّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ، فَسارَعَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ «رَمْلَةُ بِنْتُ أبي سُفْيانَ» إلى الإيمانِ بِهِ، وَالتَّصْديقِ بِدَعْوَتِهِ.

هاجَ «أبو سُفْيانَ» وَطاشَ صَوابُهُ؛ فَما كانَ يَظُنُّ أنَّ أحَدًا مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ يَسْتَطيعُ أنْ يُخالِفَ عَنْ رَأْيِهِ، وَيَشُقَّ عَصا طاعَتِهِ. وَما كانَ يَخْطُرُ عَلى بالِهِ أنَّ ابْنَتَهُ وَزَوْجَها مِنْ أوَّلِ الخارِجينَ عَلَيْهِ، المُتَمَرِّدينَ عَلى سُلْطانِهِ.

حاوَلَ «أبو سُفْيانَ» أنْ يَرُدَّ ابْنَتَهُ وَزَوْجَها إلى دينِ

آبائِهِمْ، وَأنْ يَصْرِفَهُما عَنِ الإِسْلامِ، فَلَمْ يَبْلُغْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَلَيْهِما سَبيلاً.

وَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ تَخَلِّيَ «أبي سُفْيانَ» عَنِ ابْنَتِهِ وَزَوْجِها، فَضَيَّقَتْ عَلَيْهِما الخِناقَ، وَصَبَّتْ عَلَيْهِما الأذى، فاحْتَسَبا ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِما، وَصَبَرا عَلى ما نالَهُما مِنْ ضُرٍّ، حَتَّى أذِنَ الرَّسولُ ﷺ لأصْحابِهِ بِالهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ، فَهاجَرَتْ «رَمْلَة» وَزَوْجُها «عُبَيْدُ اللهِ»، وكانَتْ «رَمْلَةُ» مُثْقَلَةً بِحَمْلِها، وَهُناكَ في أرْضِ الحَبَشَةِ وَضَعَتْ طِفْلَتَها «حَبيبَةَ»، وَبِها كُنِّيَتْ، فَأصْبَحَتْ تُدْعى «أمّ حَبيبَةَ».

جَهَدَتْ قُرَيْشٌ في أنْ تَرُدَّ هَؤُلاءِ المُهاجِرينَ إلَيْها؛ كَيْ يَظَلُّوا تَحْتَ سَمْعِها وَبَصَرِها، وَيَنالَهُمْ أذاها وَبَطْشُها؛ فَأرْسَلَتْ إلى النَّجاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ هَداياها وَرُسُلَها، يَكيدونَ لِلْمُهاجِرينَ، وَيَزْعُمونَ لَهُ أنَّهُمْ يَقولونَ في المَسيحِ عيسى بْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ غَيْرَ ما يَقولُ، فاسْتَدْعى

النَّجاشِيُّ المُهاجِرينَ، وَاسْتَمَعَ مِنْهُمْ إلى ما جاءَ في المَسيحِ (عليه السلام) وَأُمِّهِ مِنْ قُرْآنٍ كَريمٍ، فَنَطَقَ بِالحَقِّ، وَقالَ: «إنَّ هَذا القُرْآنَ وَما جاءَ بِهِ المَسيحُ عيسى بْنُ مَرْيَمَ يَخْرُجُ مِنْ مِشْكاةٍ واحِدَةٍ (مَصْدَرٍ واحِدٍ).»

وَبَسَطَ حِمايَتَهُ عَلى المُهاجِرينَ، وَرَدَّ رُسُلَ قُرَيْشٍ خائِبينَ!

* * *

ظَنَّتْ «أمُّ حَبيبَةَ» أنَّ الأيّامَ قَدْ صَفَتْ لَها، وَأنَّها تَسْتَطيعُ أنْ تَعْبُدَ - في أمانٍ - رَبَّها، وَأخَذَتْ تُكْثِرُ مِنَ الالْتِقاءِ بِرُقَيَّةَ بِنْتِ الرَّسولِ ﷺ، زَوْجَةِ عُثْمانَ بْنِ عَفّانَ، وَبِأمِّ سَلَمَةَ، وَبِأسْماءَ زَوْجَةِ جَعْفَرِ بْنِ أبي طالِبٍ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ عَنْ نَفْسِها وَطْأةَ الغُرْبَةِ، وَيُطْفِئُ لَظى الحَنينِ الَّذي يَعْتَمِلُ في صَدْرِها؛ حَتّى تَتَفَرَّغَ لِما هاجَرَتْ مِنْ أجْلِهِ.

حَسِبَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » أنَّ رِحْلَتَها الشّاقَّةَ في سَبيلِ الإيمانِ قَدْ أفْضَتْ بِها إلى شاطِئِ الأمانِ، وَ واحَةِ السَّلامِ، وَلَمْ تَكُنْ تَدْري ما تُخَبِّئُهُ لَها الأيّامُ، وَكَيْفَ تَدْري وَهُوَ غَيْبٌ لَمْ يُطْلِعِ اللهُ عَلَيْهِ أحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ؟

لَقَدْ شاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ (عَزَّ وَ جَلَّ) أنْ تُمْتَحَنَ « أمُّ حَبيبَةَ » امْتِحانًا قاسِيًا عَنيفًا، قَدْ تَضِلُّ فيهِ العُقولُ الرّاجِحَةُ، وَتَتوهُ مَعَهُ الأفْهامُ العالِيَةُ، وَلَكِنَّها خَرَجَتْ مِنْهُ - بِرِعايَةِ اللهِ - ظافِرَةً، تَتَرَبَّعُ عَلى عَرْشِ النَّصْرِ، وَتَتَسَنَّمُ ذِرْوَتَهُ !

فَقَدْ أوَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » ذاتَ لَيْلَةٍ إلى مَضْجَعِها، هادِئَةَ النَّفْسِ، مُطْمَئِنَّةَ الخاطِرِ؛ وَلَكِنَّها رَأتْ في مَنامِها ما أقَضَّ مَضْجَعَها، وَأسْهَرَ لَيْلَها - رَأتْ زَوْجَها « عُبَيْدَ اللهِ » يَتَخَبَّطُ في بَحْرٍ تَلاطَمَتْ أمْواجُهُ وَتَراكَمَتْ، كَأنَّها ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، وَهُوَ بِأسْوَإِ حالٍ، لا يَدْري أيْنَ السَّبيلُ .

هَبَّتْ مِنْ نَوْمِها خائِفَةً مَذْعورَةً، تَدْعو اللهَ أنْ يُخَفِّفَ ابْتِلاءَها، وَيُعينَها عَلى تَحَمُّلِ ما يَنْتَظِرُها مِنْ بَلاءٍ، وَما قَدْ يَنْزِلُ بِساحَتِها مِنْ ضَرّاءَ .

وَلَمْ يَطُلْ بِأمِّ حَبيبَةَ الانْتِظارُ، فَقَدْ حَمَلَ إلَيْها الصَّباحُ تَأْويلَ رُؤْياها .

لَقَدْ تَرَكَ زَوْجُها « عَبْدُ اللهِ » الدّينَ الَّذي خَرَجَ مُهاجِرًا في سَبيلِهِ، ارْتَدَّ عَنِ الإسْلامِ، وَاعْتَنَقَ دينَ النَّصْرانِيَّةِ، وَراحَ يَشْرَبُ الخَمْرَ بِغَيْرِ حِسابٍ، وَأقْبَلَ عَلَيْها يُخَيِّرُها بَيْنَ أنْ تَرْتَدَّ عَنِ الإسْلامِ وَتَعْتَنِقَ مَعَهُ ما اعْتَنَقَ مِنْ دينٍ، وَبَيْنَ أنْ يُطَلِّقَها وَيُفارِقَها. وَدونَ أنْ تَتَرَدَّدَ « أمُّ حَبيبَةَ » آثَرَتِ الثّانِيَةَ. . وَلَكِنَّها باتَتْ حَزينَةً مُتَألِّمَةً، تُبْدِئُ وَتُعيدُ في أمْرِها، وَتُحاوِلُ أنْ تَصِلَ إلى قَرارٍ في شَأْنِها؛ فَقَدْ غَدَتْ في هَذِهِ البِلادِ الغَريبَةِ وَحيدَةً، وَما ذَنْبُ هَذِهِ الطِّفْلَةِ حَتّى تَنْشَأَ في أُسْرَةٍ تَمَزَّقَتْ أواصِرُها، وَتَقَطَّعَ ما كانَ بَيْنَ والِدَيْها مِنْ رِباطٍ، وَانْبَتَّ ما كانَ بَيْنَهُما مِنْ صِلَةٍ ؟

أتعودُ بِطفلَتِها إلى مَكّةَ ؟ إنّها لَنْ تَجِدَ هُناكَ غَيْرَ بَطْشِ أبيها ، وَسُخْرِيَةِ قَومِها ! فَلْتُقِمْ - إذًا - في هَذِهِ الدِّيارِ النّائيَةِ ، وَلْتُغْلِقْ عَلَيْها بابَها ، وَلْتَفْرُغْ لِما هاجَرَتْ مِنْ أجْلِهِ ، حَتّى يَقْضِيَ اللهُ أمْرًا كانَ مَفْعولاً !

* * *

وَذاتَ صَباحٍ سَمِعَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » طَرْقًا مُتَتالِيًا على بابِها ، كَأنَّما أعْجَلَ الطّارِقَ أمْرٌ لا يَسْتَطيعُ مَعَهُ التَّرَيُّثَ وَالانْتِظارَ . . أسْرَعَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » فَفَتَحَتِ البابَ ، فَإذا هِيَ تَجِدُ أمامَها جارِيَةً سَمْراءَ مَليحَةً ، أخْبَرَتْها أنّها « أبْرَهَةُ » الخادِمُ الخاصَّةُ لِلْمَلِكِ النَّجاشِيِّ .

رَحَّبَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » بِمَقْدَمِها ، وَأذِنَتْ لَها في الدُّخولِ ، وَبَدا عَلى وَجْهِها الذُّهولُ . . فَلَمْ تَدَعْها الجارِيَةُ لِحَيْرَتِها وَذُهولِها ؛ إذْ هِيَ لَمْ تُطِقْ صَبْرًا عَلى ما تَحْمِلُ مِنْ نَبَإٍ ، وَسَرْعانَ ما زَفَّتْ إلَيْها البُشْرى !

أخْبَرَتْها أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أرْسَلَ إلى النَّجاشِيِّ يُوَكِّلُهُ في خِطْبَتِها لِنَفْسِهِ ، وَأنَّ النَّجاشِيَّ يَطْلُبُ مِنْها أنْ تَخْتارَ عَنْها وَكيلاً .

اسْتَطارَتِ الفَرْحَةُ قَلْبَ « أمِّ حَبيبَةَ » وَخَرَّتْ للهِ ساجِدَةً شاكِرَةً ؛ فَقَدْ عَوَّضَها اللهُ خَيْرًا كَثيرًا عَمّا فَقَدَتْ ، وَجازاها أفْضَلَ جَزاءٍ وَأعْظَمَهُ ، وَما إنْ رَفَعَتْ رَأْسَها مِنْ سُجودِها حَتّى راحَتْ تَخْلَعُ ما تَتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ حُلِيٍّ ، وَتُقَدِّمُهُ هَدِيَّةً لِلْجارِيَةِ « أبْرَهَةَ » ، وَلَوْ كانَتْ تَمْلِكُ كُنوزَ الدُّنْيا لَما بَخِلَتْ بِها عَلى حامِلَةِ النَّبَأِ السَّعيدِ .

لَقَدْ جاءَ السَّعْدُ يُرَفْرِفُ بِأجْنِحَتِهِ الخُضْرِ فَوْقَ دارِها المَحْزونَةِ بِغَيْرِ ميعادٍ !

نَظَرَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » إلى الوَصيفَةِ « أبْرَهَةَ » وَوَجْهُها يَفيضُ بِشْرًا وَحُبورًا ، وَمُحَيّاها يَتَلألأُ غِبْطَةً وَسُرورًا ، وَالفَرْحَةُ تَكادُ تَقْفِزُ مِنْ عَيْنَيْها . . ثُمَّ قالَتْ لَها :

« لَقَدْ وَكَّلْتُ عَنّي خالِدَ بْنَ سَعيدِ بْنِ العاصِ ، فَهُوَ

أقْرَبُ المُهاجِرينَ إليَّ، وأمَسُّهُمْ بي رَحِمًا . »

وَدَعا النَّجاشِيُّ المُهاجِرينَ إلى قَصْرِهِ، وَفي إحْدى قاعاتِهِ الفَسيحَةِ، المُزْدانَةِ بالنُّقوشِ الرّائِعَةِ، المُتَلألِئَةِ بِالأضْواءِ الباهِرَةِ، المَفْروشَةِ بِالفُرُشِ الفاخِرَةِ - اِجْتَمَعوا، وَوَقَفَ النَّجاشِيُّ وَقالَ: « إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ وَكَّلَني في أنْ أُزَوِّجَهُ ‹‹ أمَّ حَبيبَةَ بِنْتَ أبي سُفْيانَ ››، وَقَدْ أجَبْتُهُ إلى ما طَلَبَ، وَأمْهَرْتُها نِيابَةً عَنْهُ أرْبَعَمائَةِ دينار ذَهَبًا . »

ثُمَّ سَكَبَ الدَّنانيرَ بَيْنَ يَدَيْ وَكيلِها « خالِدِ بْنِ سَعيدِ بْنِ العاصِ . »

فَوَقَفَ « خالِدٌ » وَقالَ: « قَدْ أجَبْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ إلى ما طَلَبَ، وَزَوَّجْتُهُ مُوَكِّلَتي ‹‹ أمَّ حَبيبَةَ بِنْتَ أبي سُفْيانَ ›› . »

وَأخَذَ « خالِدٌ » الدَّنانيرَ، وَهَمَّ بِالقِيامِ مُنْصَرِفًا، فَقامَ القَوْمُ لِقِيامِهِ، فَقالَ لَهُمُ النَّجاشِيُّ: « مَهْلاً، إنَّ مِنْ سُنَّةِ

الأنبياءِ إذا تَزَوَّجوا أنْ يُطْعِموا طَعامًا، فاجْلِسوا . »

وَدَعا بِالطَّعامِ فَأكَلوا، ثُمَّ انْصَرَفوا، وَأتَوْا بابَ « أمِّ حَبيبَةَ » مُهَنِّئينَ مُبارَكينَ .

وَباتَتْ « رَمْلَةُ بِنْتُ أبي سُفْيانَ » وَهِيَ « أمُّ المُؤْمِنينَ » !

* * *

أشْرَقَ الصُّبْحُ عَلى « أمِّ حَبيبَةَ » وَالمُهاجِرينَ في الحَبَشَةِ طَلْقَ المُحَيّا، مُفَضَّضَ السَّنا؛ فَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلى « أمِّ حَبيبَةَ » كَرامَتَها، وَأفاءَ عَلَيْها مِنْ فَضْلِهِ، وَأسْبَغَ عَلَيْها مِنْ نِعَمِهِ .

وَما إنِ ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ قَليلاً حَتّى جاءَتْها الوَصيفَةُ « أبْرَهَةُ » تَحْمِلُ هَدايا نِساءِ المَلِكِ إلَيْها، مِنْ عودٍ وَطيبٍ وَعَنْبَرٍ، فَتَقَبَّلَتْها أمُّ المُؤْمِنينَ شاكِرَةً، ثُمَّ قالَتْ لِـ « أبْرَهَةَ »: « لَقَدْ بَشَّرْتِني بِالأمْسِ، وَلَمْ يَكُنْ بِيَدي مِنَ المالِ شَيْءٌ، وَقَدْ أعْطاني اللهُ هَذا المالَ . »

وَقَدَّمَتْ لَها خَمْسينَ دينارًا ذَهَبًا مِنْ صَداقِها .

وَلَكِنَّ الجارِيَةَ « أَبْرَهَةَ » أَبَتْ أنْ تَمَسَّ المالَ، وَشَكَرَتْ لأمِّ المُؤْمِنِينَ صَنِيعَهَا، وَرَدَّتْ عَلَيْها حُلِيَّها، وَأَخْبَرَتْها أنَّ المَلِكَ أَجْزَلَ لَها العَطاءَ، وَأمَرَها أنْ لا تَأْخُذَ مِنْ أمِّ المُؤْمِنِينَ شَيْئًا.

ثُمَّ قالَتْ « أَبْرَهَةُ »: « يا أُمَّاهُ، إنَّ لي عِنْدَكِ حاجَةً. »

قالَتْ أمُّ المُؤْمِنِينَ: « وما حاجَتُكِ، يا بِنْتي ؟ »

قالَتْ « أَبْرَهَةُ »: « لَقَدْ أَسْلَمْتُ، يا أُمَّاهُ، للهِ رَبِّ العالَمِينَ، فَإذا جِئْتِ رَسولَ اللهِ ﷺ فَأَقْرِئيهِ مِنِّي السَّلامَ، وَأَعْلِميهِ أنَّني آمَنْتُ باللهِ رَبًّا، وَبِهِ رَسولاً. »

قالَتْ أمُّ المُؤْمِنِينَ: « حاجَتُكِ، يا بِنْتي، بِإذْنِ اللهِ مَقْضِيَّةٌ. »

وَلَمّا أَرْسَلَ الرَّسولُ ﷺ إلى النَّجاشِيِّ يَطْلُبُ مِنْهُ أنْ يُرْسِلَ مَنْ بَقِيَ مِنَ المُهاجِرِينَ إلى المَدينَةِ، واسْتَجابَ النَّجاشِيُّ، وَأَرْسَلَهُمْ مَعَ مَبْعوثِ الرَّسولِ ﷺ في

سَفِينَتَيْنِ، وَوَصَلوا المَدينَةَ وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلى المُسْلِمِينَ حُصونَ خَيْبَرَ- كانَتْ فَرْحَةُ المُسْلِمِينَ في المَدينَةِ فَرْحَتَيْنِ: فَرْحَةً بِعَوْدَةِ إخْوانِهِمُ المُهاجِرينَ بَعْدَ طولِ اغْتِرابٍ، وَفَرْحَةً بِنَصْرِ اللهِ الَّذي أَجْراهُ عَلى أَيْديهِمْ.

وانْتَقَلَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » إلى بَيْتِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَأَخْبَرَتْهُ بِما كانَ مِنْ أمْرِ الخِطْبَةِ والتَّزْويجِ، وَبِما فَعَلَتْهُ مَعَها « أَبْرَهَةُ »، وَأَقْرَأَتْهُ مِنْها السَّلامَ، فَسُرَّ الرَّسولُ ﷺ بِخَبَرِها، وَقالَ: « وَعَلَيْها السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ. »

* * *

دَخَلَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » بِنْتُ أبي سُفْيانَ بَيْتَ الرَّسولِ ﷺ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَبِقَدْرِ ما أَسْعَدَها ذَلِكَ، وَمَلأَ نَفْسَها سُرورًا - بِقَدْرِ ما كانَتْ تَجِدُ في حَلْقِها غُصَّةً، وَفي قَلْبِها حُزْنًا وَأَسًى؛ لأنَّ أباها لا يَزالُ سادِرًا في غَيِّهِ، مُقيمًا عَلى جاهِلِيَّتِهِ، موقِدًا لِلْعَداوَةِ مَعَ زَوْجِها الرَّسولِ ﷺ.

وَبِقَدْرِ ما باتَتِ المَدينَةُ المُنَوَّرَةُ مُغْتَبِطَةً مَسْرورَةً - بِقَدْرِ ما باتَتْ مَكَّةُ ساهِدَةً مُؤَرَّقَةً ، تَتَناقَلُ نَبَأَ انْتِصارِ المُسْلِمينَ في خَيْبَرَ ، وَنَبَأَ زَواجِ الرَّسولِ مِنْ بِنْتِ أَبي سُفْيانَ ، الَّذي وَقَعَ عَلَيْهِ النَّبَأُ وُقوعَ الصّاعِقَةِ ، وَضاقَتْ بِهِ نَفْسُهُ أَشَدَّ الضِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ لا يَجِدُ لِغَضَبِهِ وَثَوْرَتِهِ مُتَنَفَّسًا إلا أَنْ يَنْفُخَ في نارِ العَداوَةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَمُحَمَّدٍ ؛ لِتَزْدادَ تَوَقُّدًا واشْتِعالاً . وَلَكِنْ ماذا تَسْتَطيعُ قُرَيْشٌ أَنْ تَصْنَعَ في مُواجَهَةِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ ، وَقَدْ أَصْبَحَ سُلْطانُهُ في الجَزيرَةِ لا يُقاوَمُ ، وَانْفَرَدَ بِالكَلِمَةِ العُلْيا في أَرْجائِها ؟

لَقَدْ صَبَرَتْ قُرَيْشٌ عَلى مَضَضٍ ، وَالغَيْظُ يَفْري أَكْبادَها ، وَيَأْكُلُ قُلوبَها ! وَدَفَعَها ضيقُها وَغَيْظُها إلى أَنْ تَنْقُضَ ما كانَ بَيْنَها وَبَيْنَ الرَّسولِ ﷺ مِنْ عَهْدٍ ، وَتُعينُ حُلَفاءَها عَلى حُلَفائِهِ . وَتَناهى ذَلِكَ إلى مَسامِعِ « أُمِّ حَبيبَةَ » فاشْتَدَّتْ حَيْرَتُها ، وَتَفاقَمَتْ آلامُها . إِنَّها تُدْرِكُ بِفِطْرَتِها أَنَّ زَوْجَها الرَّسولَ ﷺ لَنْ يَقْبَلَ الضَّيْمَ ، وَلَنْ

يَرْضى أَنْ تُخْفَرَ لَهُ ذِمَّةٌ ، وَأَنْ يُنْقَضَ لَهُ عَهْدٌ ! لَشَدَّ ما يُؤْذيها أَنْ تَشْتَعِلَ نارُ الحَرْبِ بَيْنَ زَوْجِها الرَّسولِ وَقَوْمِها ، فَما مِنْ قَتيلٍ إلا وَهُوَ مِنْ أَهْلِها ، وَمامِنْ شَهيدٍ إلا وَهُوَ مِنْ صَحابَةِ زَوْجِها وَأَبْنائِها المُؤْمِنينَ ! لَقَدْ ناصَبَتْ أَهْلَها العِداءَ ، وَانْحازَتْ إلى جانِبِ زَوْجِها وَنَبِيِّها ، واخْتارَتِ الإِسْلامَ دينًا ، وَبَرِئَتْ مِنْ أَهْلِها وَآلِهَتِهِمْ ، وَلَكِنْ هَلْ يَسْتَطيعُ دَمُها أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دِمائِهِمُ الَّتي اخْتَلَطَتْ بِهِ ؟ وَهَلْ يَسْتَطيعُ قَلْبُها أَنْ يَبْرَأَ مِنَ المَصيرِ الفاجِعِ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ ؟

وَبَيْنَما كانَتْ « أُمُّ حَبيبَةَ » تَعيشُ هَذِهِ المَشاعِرَ المُتَبايِنَةَ - فوجِئَتْ بِأَبيها يَتَسَلَّلُ إلى بَيْتِها ، فَوَقَفَتْ مَذْهولَةً ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ قَدْ رَأَتْهُ مُنْذُ هاجَرَتْ إلى الحَبَشَةِ ، وَكَأَنَّما أَرادَ « أَبو سُفْيانَ » أَنْ يُهَوِّنَ المَوْقِفَ عَلى ابْنَتِهِ ، فَلَمْ يَنْتَظِرْ أَنْ تَدْعُوَهُ إلى الجُلوسِ ، وَهَمَّ أَنْ يَجْلِسَ عَلى فِراشٍ كانَ مَبْسوطًا ، وَلَكِنَّهُ فوجِئَ بِابْنَتِهِ تُسْرِعُ قَبْلَهُ ، فَتَلْتَقِطُ الفِراشَ وَتَطْويهِ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، وَكَتَمَ غَيْظَهُ ، وَقالَ لَها :

« أيْ بُنَيَّةُ ، أ رَغِبْتِ بي عَنِ الفِراشِ أمْ رَغِبْتِ بِالفِراشِ عَنِّي ؟ »

فَقالَتْ لَهُ في حَسْمٍ وَدونَ تَرَدُّدٍ : « إنَّهُ فِراشُ رَسولِ اللهِ ، وَأنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ ، فَلا يَحِقُّ لَكَ الجُلوسُ عَلَيْهِ . »

قالَ لَها أبوها : « لَقَدْ أصابَكِ بَعْدي شَرٌّ كَثيرٌ . »

وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِها مُسْرِعًا ، وَهِيَ لا تَدْري لِماذا جاءَ إلى المَدينَةِ ؟ وَأيْنَ ذَهَبَ بَعْدَ خُروجِهِ ؟ حَتَّى جاءَها رَسولُ اللهِ ﷺ فَأخْبَرَها أنَّ قُرَيْشًا أرْسَلَتْ أباها يَطْلُبُ المُسالَمَةَ وَالمُوادَعَةَ ، بَعْدَ أنْ أدْرَكَتْ خَطَأها في نَقْضِ العَهْدِ ، وَأنَّ أباها كَلَّمَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ إلى ما طَلَبَ ، فَذَهَبَ إلى أبي بَكْرٍ فاعْتَذَرَ لَهُ بِأنَّهُ لا يُجيرُ عَلى رَسولِ اللهِ ، فاسْتَعانَ بِعُمَرَ فَرَدَّهُ رَدًّا غَليظًا ، فالْتَجَأَ إلى عُثْمانَ فَأبى عَلَيْهِ ، فاسْتَعانَ بِعَلِيٍّ وَفاطِمَةَ فَلَمْ يُعيناهُ عَلى شَيْءٍ .

وَوَعَتْ « أمُّ حَبيبَةَ » أنَّ زَوْجَها الرَّسولَ ﷺ سَوْفَ

يَتَهَيَّأُ لِفَتْحِ مَكَّةَ ، وَتَحْطيمِ الأصْنامِ عَلى رُءوسِ عابِديها ، وَفي مُقَدِّمَتِهِمْ « أبو سُفْيانَ » أبوها ! واشْتَدَّتْ حَيْرَتُها ، وَكادَ يَسْتَبِدُّ الحُزْنُ بِقَلْبِها ، وَلَكِنَّ بَريقًا مِنْ أمَلٍ لاحَ لَها ، فاسْتَمْسَكَتْ بِهِ ، وَنامَتْ في هُدوءٍ .. فَقَدْ يَشْرَحُ اللهُ صَدْرَ أبيها لِلإسْلامِ ، كَما شَرَحَ صَدْرَ خالِدِ بْنِ الوَليدِ ، وَعَمْرِو بْنِ العاصِ وَغَيْرِهِما مِنْ قادَةِ قُرَيْشٍ وَزُعَمائِها .

وَتَلَتْ قَوْلَ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) :

﴿ عَسى اللهُ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً واللهُ قَديرٌ واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ . ﴾

وَهَذا أقْصى ما تَمْلِكُهُ « أُمُّ حَبيبَةَ » بِنْتُ أبي سُفْيانَ لأبيها وَأهْلِها .

* * *

ثُمَّ جاءَتِ الأنْباءُ إلى مَدينَةِ الرَّسولِ ﷺ أنَّ « أبا سُفْيانَ » قَدْ دَخَلَ في الإسْلامِ ، حينَ بَعَثَتْهُ قُرَيْشٌ لِيَسْتَطْلِعَ

لَها أمْرَ جَيْشِ المُسْلمينَ، وَأنَّ رَسولَ اللهِ، قَدْ جَعَلَ لَهُ شَيْئًا دونَ سائِرِ النّاسِ، يَفْخَرُ بِهِ وَيَعْتَزُّ:

« مَنْ دَخَلَ دارَ أبي سُفْيانَ فَهُوَ آمِنٌ. »

وَتَناقَلَتِ الأجْواءُ هَذا الهُتافَ حَتّى بَلَغَ مَسامِعَ « أمِّ حَبيبَةَ » فَرَدَّدَتِ الهُتافَ:

« مَنْ دَخَلَ دارَ أبي فَهُوَ آمِنٌ. »

ألا ما أكْرَمَ زَوْجَها وَما أنْبَلَهُ! وَما أرْحَمَهُ وَما أرْأفَهُ!

وَأحَسَّتْ أنَّه قَدْ رُفِعَ عَنْ كاهِلِها حِمْلٌ ثَقيلٌ.

وَسَجَدَتْ للهِ ضارِعَةً شاكِرَةً.

وَظَلَّتْ تَعْمَلُ وُسْعَها، وَتَبْذُلُ طاقَتَها في مَرْضاةِ رَبِّها، وَفي مَرْضاةِ زَوْجِها رَسولِ اللهِ ﷺ حَتّى انْتَقَلَ إلى الرَّفيقِ الأعْلى.

وَامْتَدَّ بِها العُمْرُ بَعْدَ زَوْجِها رَسولِ اللهِ ﷺ، حَتّى إذا ما آنَ الرَّحيلُ دَعَتْ إلَيْها السَّيِّدَةَ عائِشَةَ بِنْتَ أبي بَكْرٍ وَقالَتْ

لَها وَهِيَ تُحْتَضَرُ: « يا عائِشَةُ، قَدْ يَكونُ بَيْنَنا ما يَكونُ بَيْنَ الضَّرائِرِ فَلْتُسامِحيني. غَفَرَ اللهُ لي وَلَكِ. »

فَسامَحَتْها عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) فَقالَتْ لَها: « سَرَرْتِني، سَرَّكِ اللهُ. »

وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ مَعَ « حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ »، وَمَعَ « أمِّ سَلَمَةَ » بِنْتِ زادِ الرَّكْبِ، ثُمَّ رَقَدَتْ بِسَلامٍ في ثَرى البَقيعِ، في العامِ الرّابِعِ وَالأرْبَعينَ مِنَ الهِجْرَةِ، في خِلافَةِ أخيها مُعاوِيَةَ.

أغلى المُهورِ

كانَتْ حَديثَةَ عَهْدٍ بالشَّبابِ : لَمْ تَتَقَدَّمْ بِها السِّنُّ ، فَتَدْنُوَ مِنَ الهَرَمِ والشَّيْخوخَةِ ، وتَبْدُوَ على وَجْهِها الغُضونُ ، وتَشيعَ فيهِ التَّجاعيدُ ، وتَتَّسِمَ حَرَكَتُها بالبُطْءِ والضَّعْفِ ، وجِسْمُها بالهُزالِ . ولَمْ تَتَأَخَّرْ بِها السِّنُّ فَتَظَلَّ في نَضْرَةِ الشَّبابِ ورُوائِهِ ، وقُوَّتِهِ وبَهائِهِ - وإنَّما هِيَ وَسَطٌ بَيْنَ الشَّبابِ والهَرَمِ : فيها مِنَ الشَّبابِ نُضْجُهُ واسْتِواؤُهُ ، وبَعْضٌ مِنْ زَهْوِهِ وبَهائِهِ ، وفيها مِنَ الهَرَمِ خِبْرَتُهُ وحِكْمَتُهُ ، ورَزانَتُهُ وتَجْرِبَتُهُ .

كَذلِكَ كانَتْ « أُمُّ سُلَيْمٍ الرُّمَيْصاءُ بِنْتُ مِلْحانَ النَّجّارِيَّةُ » حينَ تُوُفِّيَ عَنْها زَوْجُها في يَثْرِبَ (المَدينَةِ) وتَرَكَها أَرْمَلَةً ، ومَعَها ابْنُها « أَنَسٌ » يَخْطو نَحْوَ الشَّبابِ .

حينَ عَرَفَ « أبو طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ » هذا النَّبَأَ -

تَعاوَرَتْهُ عَواطِفُ شَتَّى ، امْتَزَجَ فيها الرِّثاءُ لأُمِّ سُلَيْمٍ والإشْفاقُ عَلَيْها ، بالرَّغْبَةِ في الزَّواجِ بِها ؛ فَهِيَ امْرَأَةٌ رَزينَةٌ عَفيفَةٌ ، ذاتُ أَصْلٍ وحَسَبٍ ، لا يَجِدُ غَيْرَها كُفْئًا لَهُ . وراحَ يُديرُ هذِهِ الخَواطِرَ في ذِهْنِهِ ، تُرى : أتَرْضى بِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ زَوْجًا ؟ ولِماذا تَرْفُضُهُ ؟ إنَّه يُضارِعُها في الحَسَبِ والنَّسَبِ ، وهُوَ فارِسُ بَني النَّجّارِ ، الَّذي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، وهُوَ ذو مالٍ وَفيرٍ ، وجاهٍ عَريضٍ .

نَعَمْ ، إنَّها قَدِ اسْتَمَعَتْ إلى ذلِكَ الفَتى المَكِّيِّ ، الَّذي جاءَ يُبَشِّرُ بِدينٍ جَديدٍ ، ويَتْلو على مُسْتَمِعيهِ القُرْآنَ المَجيدَ ، وقَدْ آمَنَتْ بِهذا الدِّينِ ، ودَخَلَتْ في الإسْلامِ ، وقَدْ تَأْبى الزَّواجَ مِنْهُ لِذلِكَ ، ولكِنْ لا فَإنَّ زَوْجَها الَّذي ماتَ عَنْها كانَ على دينِ آبائِهِ ، ولَمْ يَضِقْ ذَرْعُها بِهِ ، ولَمْ تَنْقَلِبْ عَلَيْهِ .

وحَزَمَ « أبو طَلْحَةَ » أَمْرَهُ ، وسَعى إلى بَيْتِ « أُمِّ سُلَيْمٍ » ، فاسْتَأْذَنَ عَلَيْها فَأَذِنَتْ لَهُ ، وجَلَسَ إلَيْها - وكانَ

ابْنُها حاضِرًا – وَهُوَ يُديرُ في رَأْسِهِ أَفْكارَهُ، وَيُرَتِّبُ أَقْوالَهُ، ثُمَّ قالَ لَها: « يا أُمَّ سُلَيْم، لَقَدْ عَلِمْتُ خَبَرَ تَرَمُّلِكِ، فَجِئْتُكِ مُعَزِّيًا وَخاطِبًا في آنٍ واحِدٍ. »

قالَتْ: « بارَكَ اللهُ فيكَ، يا أبا طَلْحَةَ. وَلَكِنْ لِمَنْ تَخْطُبُني ؟ »

قالَ أبو طَلْحَةَ: « وَهَلْ يَليقُ بِكِ غَيْري ؟ أخْطُبُكِ لِنَفْسي يا أمَّ سُلَيْم ! »

قالَتْ: « مِثْلُكَ، يا أبا طَلْحَةَ، لا تُرَدُّ خِطْبَتُهُ، وَلا تُرْفَضُ رَغْبَتُهُ، وَلَكِنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَزَوَّجَكَ. »

قالَ أبو طَلْحَةَ: « لِماذا، يا أُمَّ سُلَيْمٍ، وَأَنْتِ تَعْرِفينَ مَكاني بَيْنَ القَوْمِ ؟ »

قالَتْ: « مَكانُكَ لا يُنْكَرُ، وَمَنْزِلَتُكَ لا تُجْحَدُ، وَلَكِنَّكَ مُشْرِكٌ وَأَنا مُسْلِمَةٌ ! »

لَمْ يَرُقْ هَذا الجَوابُ لأبي طَلْحَةَ، وَظَنَّ أَنَّها ابْتَدَعَتْ هَذِهِ العِلَّةَ لأَنَّها تُؤْثِرُ عَلَيْهِ رَجُلاً آخَرَ، قَدْ يَكونُ أَكْثَرَ مِنْهُ

مالاً، وَأَعْظَمَ جاهًا؛ لَقَدْ كانَ زَوْجُها الَّذي ماتَ عَنْها عَلى الدِّينِ الَّذي يُؤْمِنُ بِهِ.

بَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ قالَ أبو طَلْحَةَ: « ما أَظُنُّ أَنَّ هَذا هُوَ الَّذي يَمْنَعُكِ، يا أُمَّ سُلَيْمٍ؛ وَلَكِنَّها حُجَّةٌ تَتَذَرَّعينَ بِها. »

قالَتْ: « وَما الَّذي يَمْنَعُني غَيْرُ ذَلِكَ، يا أَبا طَلْحَةَ ؟ »

قالَ: « قَدْ يَكونُ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ ! »

قالَتْ في عَجَبٍ واسْتِنْكارٍ: « الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ ؟ إِنّي أُشْهِدُكَ يا أَبا طَلْحَةَ، وَأُشْهِدُ اللهَ وَرَسولَهُ أَنَّكَ إِنْ دَخَلْتَ في الإِسْلامِ – رَضيتُ بِكَ زَوْجًا، مِنْ غَيْرِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ، وَقَبِلْتُ إِسْلامَكَ مَهْرًا لي. »

أَحَسَّ أبو طَلْحَةَ نَبْرَةَ الصِّدْقِ في قَوْلِها، فَما هِيَ بِالمَرْأَةِ الَّتي تُلْقي الكَلامَ جُزافًا دونَ تَدَبُّرٍ وَتَفْكيرٍ، وَإِنَّما هِيَ تَزِنُ كَلامَها بِميزانٍ دَقيقٍ، وَتَضَعُ كُلَّ كَلِمَةٍ في مَوْضِعِها الدَّقيقِ. ثُمَّ خَطَرَ بِبالِهِ صَنَمُهُ، الَّذي صَنَعَهُ مِنَ الخَشَبِ الجَيِّدِ، وَعُنِيَ بِتَزْيينِهِ وَتَجْميلِهِ، عَلى عادَةِ الأَشْرافِ

والسّادةِ مِنْ قَوْمِهِ. كَيْفَ يَتخلّى عَنْهُ، وَهَلْ يُطاوِعُهُ ضَميرُهُ لِيُحطِّمَهُ؟ طالَما وَقَفَ أمامَهُ سائِلاً، وَطافَ بِهِ مُتَقَرِّبًا!

لاحَظَتْ «أُمُّ سُلَيْم» تَفْكيرَهُ وَتَرَدُّدَهُ، وَشَعَرَتْ أنَّهُ يُعاني في داخِلِهِ، وَأنَّهُ يُوازِنُ بَيْنَ ما عَرَضَتْهُ عَلَيْهِ وَما هُوَ فيهِ، وَلَعَلَّهُ يَقولُ في نَفْسِهِ: وَماذا يَقولُ قَوْمي عَنّي؟ يَقولونَ تَرَكْتُ دينَ آبائي لِكَيْ أتَزَوَّجَ «أُمَّ سُلَيْم»!

شَعَرَتْ «أُمُّ سُلَيْم» بِما يُكابِدُهُ الرَّجُلُ مِنْ أفْكارٍ، وَما يَجيشُ في نَفْسِهِ مِنْ خَواطِرَ، فَأسْرَعَتْ تُعينُهُ عَلى اتِّخاذِ قَرارِهِ، فَقالَتْ لَهُ: «يا أبا طَلْحَةَ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ صَنَعْتَ صَنَمَكَ الَّذي تَطوفُ بِهِ، وَتَتَقَرَّبُ إلَيْهِ؟»

خَرَجَ أبو طَلْحَةَ مِنْ صَمْتِهِ، وَأحَسَّ كَأنَّما انْتَشَلَتْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ مِنْ بِئْرٍ عَميقَةٍ، وَقالَ:

«صَنَعْتُهُ مِنَ الخَشَبِ الجَيِّدِ، وَزَيَّنْتُهُ وَجَمَّلْتُهُ.»

قالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: «وَغَيْرُكَ أخَذَ هَذا الخَشَبَ فَجَعَلَهُ

وَقودًا، يَطْهو عَلَيْهِ طَعامَهُ، وَيَخبِزُ عَجينَهُ، وَيَسْتَدْفِئُ بِهِ.»

لَمْ يُجِبْ أبو طَلْحَةَ، وَلَكِنَّ كَلِماتِها حَرَّكَتْ مَشاعِرَهُ، وَوَجَّهَتْ تَفْكيرَهُ، وَأدارَها في خَلَدِهِ: «إنَّ ما تَقولُهُ صَحيحٌ كُلُّهُ، وَلَكِن..»

قالَتْ أُمُّ سُلَيْم: «يا أبا طَلْحَةَ، لا تُحَمِّلْ نَفْسَكَ ما لا طاقَةَ لَها بِهِ، وَلا تُرْهِقْ ذِهْنَكَ بِكَثْرَةِ التَّفْكيرِ - فَأنْتَ لا تَدْخُلُ في الإسْلامِ مِنْ أجْلي، وَلَكِنّي أدْعوكَ إلى الإسْلامِ؛ فَإنْ كُنْتَ تَجِدُ في صَدْرِكَ انْشِراحًا لَهُ فَأقْبِلْ عَلَيْهِ.»

قَطَعَتْ هَذِهِ الكَلِماتُ الصّادِقَةُ تَرَدُّدَهُ، وَأعادَتْ إلَيْهِ صَوابَهُ، وَأعانَتْهُ عَلى اتِّخاذِ قَرارِهِ، فَقالَ لَها: «وَكَيْفَ الدُّخولُ في الإسْلامِ، يا أُمَّ سُلَيْمٍ؟»

قالَتْ: «تَقولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ.»

وَنطقَ أَبو طَلْحَةَ بالشَّهادَتَيْنِ ، فَفَصَلَ بِهذا النُّطقِ بَيْنَ عَهْدَيْنِ ، وتَحَرَّرَ بِهذا التَّوْحيدِ مِنْ عِبادَةِ الأَصْنامِ ، بَلْ تَحرَّرَ مِنْ كُلِّ عُبوديَّةٍ لِغَيْرِ اللهِ ، فانْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى بَيْتِه ، حَيْثُ حطَّمَ الصَّنَمَ المَنْصوبَ في فِنائِه ، ثُمَّ عادَ مُسْرِعًا - كَذَلِكَ - إلى أُمِّ سُلَيْمٍ ، يَخْطُبُها لِنَفْسِه.

قالَتْ أُمُّ سُلَيْم لابْنِها - وَقَدْ تَقَدَّمَ لَها أَبو طَلْحَةَ المُسْلِمُ : « يا أَنَسُ ، زَوِّجْني مِنْ أَبي طَلْحَةَ ، واجْعَلْ إسْلامَهُ مَهْرًا لي . »

وَتَزَوَّجَها أَبو طَلْحَةَ ، وَكانَ مَهْرُها أَعْظَمَ المُهورِ وَأَغْلاها !

وَلَمّا وافى مَوْسِمُ الحَجِّ خَرَجَ أَبو طَلْحَةَ وَأُمُّ سُلَيْمٍ إلى مَكَّةَ ، وَكانَ أَحَدَ السَّبْعينَ الَّذينَ مَدُّوا أَيْديَهُمْ مُبايِعينَ الرَّسولَ ﷺ في بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثّانِيَةِ ، وَكانَتْ مَعَهُ زَوْجُهُ « أُمُّ سُلَيْمٍ » .

* * *

عادَ أَبو طَلْحَةَ وَزَوْجُهُ أُمُّ سُلَيْمٍ إلى يَثْرِب ؛ لِيَضَعَ كُلَّ طاقَتِهِ في خِدْمَةِ الدِّينِ الَّذي آمَنَ بِه ، فَوَجَدَ سَكينَةً في نَفْسِهِ ، وَراحَةً في قَلْبِهِ ، وَاطْمِئنانًا في صَدْرِهِ .

وَلَمّا كانَتِ الهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّريفَةُ لَزِمَ الرَّسولَ ﷺ ، وَأَحَبَّهُ حُبًّا جَمًّا ، حُبًّا خالَطَ شَغافَ قَلْبِهِ ، فَكانَ لا يَشْبَعُ مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِهِ الكَريمِ ، وَكانَ يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَقولُ لَهُ : « نَفْسي لِنَفْسِكَ الفِداءُ ، يا رَسولَ اللهِ . وَ وَجْهي لِوَجْهِكَ الوِقاءُ . »

وَبَدَأَ الصِّدامُ المُسَلَّحُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَالمُشْرِكينَ ، وَحَضَرَ أَبو طَلْحَةَ المَواقِعَ كُلَّها بِجِوارِ الرَّسولِ القائِدِ ، وَأَبْلى تَحْتَ رايَتِهِ بَلاءً حَسَنًا ، وَكانَ لَهُ في مَوْقِعَةِ « أُحُدٍ » مَوْقِفٌ لا يَنْساهُ لَهُ التّاريخُ :

فَحينَ انْكَشَفَ المُسْلِمونَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَانْهَزَموا أَمامَ جَيْشِ المُشْرِكينَ ، حَتَّى خَلَصَ بَعْضُ المُشْرِكينَ إلى الرَّسولِ القائِدِ ، فَكَسَروا سِنَّهُ ، وَشَجُّوا جَبينَهُ ، وَجَرَحوا

شَفَتَهُ، وَأسالوا الدَّمَ على وَجْهِهِ. وَأَرْجَفَ المُشْرِكونَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ، فازْدادَ المُسْلِمونَ وَهْنًا على وَهْنٍ، وَتَخاذُلاً فَوْقَ تَخاذُلٍ، وَأَعْطَوُا المُشْرِكينَ ظُهورَهُمْ؛ حينَئِذٍ لَمْ يَثْبُتْ مَعَ الرَّسولِ القائِدِ غَيْرُ نَفَرٍ قَليلٍ، في مُقَدِّمَتِهِمْ أبو طَلْحَةَ!

وَقَفَ أبو طَلْحَةَ أمامَ الرَّسولِ القائِدِ يَقيهِ بِنَفْسِهِ، وَيَجْعَلُ مِنْ جِسْمِهِ تُرْسًا يَحْمي الرَّسولَ القائِدَ مِنْ سِهامِ المُشْرِكينَ، وَشَدَّ قَوْسَهُ وَأَخَذَ يَرْمي المُشْرِكينَ بِسِهامِهِ الَّتي لا تَخيبُ، فَكانَ يُصيبُهُمْ واحِدًا إثْرَ واحِدٍ، وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يَتَطَلَّعُ مِنْ بَيْنِ مَنْكِبَيْهِ لِيَرى ما يَحْدُثُ، فَكانَ أبو طَلْحَةَ يَرُدُّهُ خَوْفًا عَلَيْهِ، وَيَقولُ لَهُ:

«يا رَسولَ اللهِ، لا تُشْرِفْ عَلَيْهِمْ فَيُصيبوكَ. نَحْري دونَ نَحْرِكَ، جُعِلْتُ فِداكَ!»

وَكانَ الرَّجُلُ مِنَ المُسْلِمينَ يَمُرُّ هارِبًا أمامَ الرَّسولِ القائِدِ، وَمَعَهُ سِهامُهُ، فَيَقولُ لَهُ: «انْثُرْ سِهامَكَ أمامَ أبي

طَلْحَةَ.»

وَظَلَّ أبو طَلْحَةَ يُدافِعُ دونَ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَيَقْتُلُ مِنَ المُشْرِكينَ ما شاءَ اللهُ لَهُ أَنْ يَقْتُلَ، حَتّى كَسَرَ ثَلاثَ أَقْواسٍ!

وَانْجَلَتِ المَعْرَكَةُ، وَقَدْ حَفِظَ اللهُ رَسولَهُ، وَشَرَّفَ أبا طَلْحَةَ، وَأَعْلى بَيْنَ المُسْلِمينَ مَكانَتَهُ!

* * *

وَلَمْ يَبْذُلْ أبو طَلْحَةَ نَفْسَهُ في ساحَةِ الوَغى فَحَسْبُ، مَعَ أَنَّ الجُودَ بِالنَّفْسِ أَقْصى غايَةِ الجُودِ؛ فَقَدْ وَعى جَيِّدًا أَنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدِ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، وَجَعَلَ ذلِكَ وَعْدًا عَلَيْهِ لا يُخْلِفُهُ، وَوَثَّقَ هذا الوَعْدَ الكَريمَ في كُتُبِهِ المُنَزَّلَةِ: التَّوارةِ والإنْجيلِ وَالقُرْآنِ. فَمَضى أبو طَلْحَةَ في وَقْتِ السِّلْمِ يَبْذُلُ مالَهُ في سَبيلِ اللهِ. كَما يَبْذُلُ نَفْسَهُ في وَقْتِ الحَرْبِ.

كانَ لَهُ بُسْتانٌ لَمْ تَعْرِفِ المَدينَةُ بُسْتانًا أَجْمَلَ مِنْهُ شَجَرًا،

وَلا أَشْهى مِنْهُ ثَمَرًا ، وَلا أَعْذَبَ مِنْهُ ماءً . . وَفي يَوْمٍ كانَ أَبو طَلْحَةَ يُقيمُ صَلاتَهُ تَحْتَ أَفْيائِهِ وَظِلالِهِ ، فَلَفَتَ نَظَرَهُ طائِرٌ أَخْضَرُ اللَّوْنِ ، مَصْبوغُ الرِّجْلَيْنِ ، يَنْتَقِلُ بِمَهارَةٍ مِنْ فَنَنٍ (غُصْنٍ) إلى فَنَنٍ ، وَيُغَرِّدُ عَلى كُلِّ غُصْنٍ بِصَوْتٍ ساحِرٍ جَذّابٍ .

آثارَ هَذا الطّائِرُ الجَميلُ الغَرِدُ انْتِباهَ أَبي طَلْحَةَ ، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ رَكْعَةً صَلّى : أَصَلّى رَكْعَتَيْنِ أَمْ ثَلاثًا ؟

فَخَرَجَ مِنْ صَلاتِهِ ، وَقَدْ نَوى أَمْرًا .

أَعادَ أَبو طَلْحَةَ الصَّلاةَ في يَقَظَةٍ ، وَما إِنْ فَرَغَ مِنْها حَتّى انْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَشَكا إِلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَكَيْفَ تَلَهّى بِالشَّجَرِ الوارِفِ ، وَالثَّمَرِ الشَّهِيِّ ، وَالقُطوفِ الدّانِيَةِ ، وَالطَّيْرِ المُغَرِّدِ - تَلَهّى بِذَلِكَ عَنِ الصَّلاةِ !

ثُمَّ قالَ : « اِشْهَدْ - يا رَسولَ اللهِ - أَنّي جَعَلْتُ هَذا البُسْتانَ صَدَقَةً ؛ فَقَدِّمْهُ - يا رَسولَ اللهِ - حَيْثُ تَشاءُ . »

* * *

اِمْتَدَّ العُمْرُ بِأَبي طَلْحَةَ بَعْدَ وَفاةِ الرَّسولِ ﷺ ، فَقَضى أَيّامَهُ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ ، لَمْ توهِنِ الشَّيْخوخَةُ قُوَّتَهُ ، وَلَمْ تُضْعِفْ عَزيمَتَهُ ، وَلَمْ يَخْشَ في الحَقِّ لَوْمَةَ لائِمٍ .

حينَ طُعِنَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ، وَجَعَلَ أَمْرَ الخِلافَةِ شورى بَيْنَ نَفَرٍ مِنْ كِبارِ ذَوي السّابِقَةِ مِنَ المُهاجِرينَ ، وَهُمْ : عَلِيٌّ ، وَعُثْمانُ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ - أَمَرَ أَنْ يُدْعى إِلَيْهِ « أَبو طَلْحَةَ الأَنْصارِيُّ » ، فَلَمّا جاءَهُ أَمَرَهُ أَنْ يَجْمَعَ مَعَهُ خَمْسينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ ، وَأَنْ يَجْمَعَ هَؤُلاءِ السِّتَّةَ في بَيْتٍ ، وَيَقومَ فيمَنْ مَعَهُ عَلى بابِهِم ، حَتّى يَخْتاروا رَجُلاً مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَيُؤَجِّلَهُمْ في ذَلِكَ أَيّامًا ثَلاثَةً ، تَكونُ فيها الصَّلاةُ لِصُهَيْبٍ رضي الله عنه .

وَحينَ عَزَمَ المُسْلِمونَ عَلى إِحْدى الغَزَواتِ في عَهْدِ « عُثْمانَ بْنِ عَفّانَ » رضي الله عنه ، وَكانَ لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ رُكوبِ

البَحْرِ - أبى « أبو طَلْحَةَ » إلا أَنْ يكونَ مَعَ المُجاهِدينَ ، فَقالَ لَهُ أَبْناؤُهُ :

« يا أبانا ، لَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِكَ السِّنُّ ، وَعَلَتْكَ الشَّيْخوخَةُ ، وَلَيْسَتْ بِكَ قُدْرَةٌ عَلى رُكوبِ البَحْرِ ، وَقَدْ شَرَّفَكَ اللهُ وَكَرَّمَكَ بالجِهادِ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ وَمَعَ خَليفَتَيْهِ : أَبي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَآنَ لَكَ أَنْ تُصيبَ حَظَّكَ مِنَ الرّاحَةِ ، وَنَحْنُ نُجاهِدُ بَدَلاً مِنْكَ . »

فَقالَ لَهُمْ أبو طَلْحَةَ : « إن اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) حينَ اسْتَنْفَرَ المُسلِمينَ لِلْجِهادِ ، وَحَثَّهُمْ عَلى القِتالِ - لَمْ يُحَدِّدْ سِنّاً ، وَلَمْ يَجْعَلْ قَوْلَهُ - سُبْحانَهُ - لِلشُّبّانِ دونَ الشُّيوخِ ، وَإِنَّما قالَ : ﴿ انفِروا خِفافًا وثِقالاً . ﴾ »

فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَبْناؤُهُ إلا الإذْعانَ لَهُ ، وَالاسْتِجابَةَ لِرَغْبَتِهِ .

تَجَهَّزَ « أَبوطَلْحَةَ » ، وَرَكِبَ السَّفينَةَ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ ، مَعَ غَيْرِهِ مِنْ جُنودِ المُسْلِمينَ .

وَبَيْنَما السَّفينَةُ تَمْخُرُ عُبابَ البَحْرِ مَرِضَ « أَبو طَلْحَةَ »

عَلى ظَهْرِها مَرَضًا شَديدًا ، فارَقَ عَلى إِثْرِهِ الحَياةَ !

وَراحَ المُسْلِمونَ يَبْحَثونَ عَنْ جَزيرَةٍ لِيَدْفِنوا فيها صاحِبَهُمْ ، وَظَلّوا أَيّامًا سَبْعَةً حَتّى عَثَروا عَلى ما يَبْتَغونَ ، وَأَبو طَلْحَةَ مُسَجّى بَيْنَهُمْ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فيهِ شَيْءٌ كَأَنَّما هُوَ نائِمٌ !

وَفي عُرْضِ البَحْرِ ، في جَزيرَةٍ نائِيَةٍ ، بَعيدًا عَنِ الأَهْلِ وَالأَحْبابِ دُفِنَ « أَبو طَلْحَةَ » .

وَلَكِنْ ﴿ أَيْنَما تَكونوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . ﴾

المَرْأةُ الَّتي أنْقَذَتْ جَيْشًا
(صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِب)

نَشَأتْ « صَفِيَّةُ » كَما يَنْشَأُ أتْرابُها مِنْ بَناتِ السّادَةِ وَالأشْرافِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَلَكِنَّها امْتازَتْ عَنْ غَيْرِها بأنَّ والِدَها « عَبْدَ المُطَّلِب » ، زَعيمُ قُرَيْشٍ ، وَسَيِّدُها المُطاعُ ، وَأمَّها « هالَةَ بِنْتَ وَهْب » ، أخْتُ « آمِنَةَ بِنْتِ وَهْب » أمِّ الرَّسولِ ﷺ ، فَتَسْري في عُروقِها - إذًا - دِماءُ العِزَّةِ والكَرامَةِ ، وَيَكْتَنِفُها مِنْ جَميعِ جَوانِبِها الحَسَبُ الأصيلُ ، وَالنَّسَبُ الكَريمُ ؛ فَلا غَرْوَ أنْ كانَتْ ذاتَ عَقْلٍ حَصيفٍ ، وَفِكْرٍ مُسْتَنيرٍ ، وَرَأيٍ سَديدٍ ، وَنَظْرَةٍ ثاقِبَةٍ ، وَشَجاعَةٍ فائِقَةٍ .

تَزَوَّجَتِ « العَوّامَ بْنَ خُوَيْلِدٍ » شَقيقَ « خَديجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ » الطّاهِرَةِ ، الَّتي تَزَوَّجَتِ الرَّسولَ ﷺ ، وَأنْجَبَتْ

« صَفِيَّةُ » مِنَ العَوّامِ ابْنًا أسْمَتْهُ « الزُّبَيْر » ، وَماتَ عَنْها زَوْجُها العَوّامُ ، وَالزُّبَيْرُ طِفْلٌ صَغيرٌ ، فَقامَتْ « صَفِيَّةُ » عَلى تَرْبِيَتِهِ ، وَحَرَصَتْ عَلى تَنْشِئَتِهِ تَنْشِئَةً تَميلُ إلى الخُشونَةِ والصَّلابَةِ أكْثَرَ مِمّا تَميلُ إلى الدَّعَةِ وَالنُّعومَةِ ، وَجَعَلَتْ لَعِبَهُ في بَرْيِ السِّهامِ ، وَإصْلاحِ القِسِيِّ ، وَ دَرَّبَتْهُ عَلى الفُروسِيَّةِ ، وَدَأبَتْ عَلى أنْ تَدْفَعَ بِهِ لِمُواجَهَةِ الأخْطارِ وَالمَخاوِفِ ، فَإذا آنَسَتْ مِنْهُ إحْجامًا ، أوْ رَأتْ مِنْهُ تَرَدُّدًا - ضَرَبَتْهُ عَلى ذَلِكَ ضَرْبًا شَديدًا موجِعًا ، حَتّى إنَّ واحِدًا مِنْ أعْمامِهِ عاتَبَها في ذَلِكَ ، وَبَرَّرَ عَتْبَهُ عَلَيْها بِأنَّ ابْنَها صَغيرُ السِّنِّ ، لا يَقْدِرُ عَلى تَنْفيذِ ما تُريدُ ، وَلا يَقْوى - بَعْدُ - عَلى الصُّمودِ أمامَ الخُطوبِ وَالأحْداثِ ، وَقالَ لَها :

« ما هَكَذا ، يا صَفِيَّةُ ، يُضْرَبُ الصَّبِيُّ ؟ إنَّكِ تَضْرِبينَهُ ضَرْبَ مُبْغِضَةٍ لَهُ ، ضائِقَةٍ بِهِ ! »

فَقالَتْ لَهُ : « مَنْ زَعَمَ أنّي أبْغَضْتُهُ فَقَدْ كَذَبَ . إنَّما

أضْرِبُهُ لِيَتَعلَّمَ ويَرْشُدَ، ويُصْبِحَ عاقِلاً لَبيبًا، قَويًّا شُجاعًا، يَهْزِمُ الجُيوشَ، ويَغْنَمُ المَغانِمَ . »

وَقَدْ تَحقَّقَ لِصَفيَّةَ ما أرادَتْهُ مِنِ ابْنِها، فَقَدْ أصْبَحَ صَفيَّ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَفارِسَ الإسْلامِ الَّذي لا يُشَقُّ غُبارُهُ، وَلا تُلْحَقُ آثارُهُ .

وَحينَ أشْرقَ فَجْرُ الإسْلامِ في مَكَّةَ، وَنَزَلَ الرّوحُ الأمينُ على قَلْبِ النَّبيِّ الكَريمِ بِقَولِهِ - عزَّ وَجلَّ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرَبينَ . ﴾ وَجَمَعَ الرَّسولُ ﷺ بَني هاشِمٍ، وَقالَ لَهُمْ:

« يا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، إنّي لا أمْلِكُ لَكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا . .

« يا صَفيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إنّي لا أمْلِكُ لَكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا . .

« يا بَني عَبْدِ المُطَّلِبِ، إنّي لا أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا . . »

ثُمَّ دَعاهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لا شَريكَ لَهُ، وَنَبْذِ عِبادَةِ الأصْنامِ، الَّتي لا تَسْمَعُ وَلا تُبْصِرُ، وَلا تُغْني عَنْهُمْ وَلا عَنْ نَفْسِها شَيْئًا، وَقَرأَ عَلَيْهِمْ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ . . فَآمَنَ مِنْهُمْ مَنْ شَرَحَ اللهُ لِلإسْلامِ صَدْرَهُ، وَأصَرَّ عَلى الكُفْرِ مَنْ قَسا قَلْبُهُ، وَتَحجَّرَ فُؤادُهُ .

وَكانَتْ صَفيَّةُ وابْنُها الزُّبَيْرُ مِنْ أوَّلِ المُسْلِمينَ، فَخالَطَتْ بَشاشَةُ الإيمانِ قَلْبَيْهِما، وَتَذَوَّقا حَلاوَتَهُ، واطْمَأنّا إلَيْهِ . . وَمَكَثا في مَكَّةَ يَتَزوَّدانِ مِنَ القُرْآنِ، وَيَتَعلَّمانِ مَبادِئَ الإسْلامِ، وَيَنْعَمانِ بِصُحْبَةِ الرَّسولِ الحَبيبِ .

وَكانا كَغَيْرِهِما مِنَ المُسْلِمينَ يَلْقَيانِ مِنْ صَلَفِ قُرَيْشٍ وَغُرورِها بَعْضَ العَنَتِ، وَيَضيقانِ بِما يَرَيانِهِ مِنْ فِتْنَةِ المُسْتَضْعَفينَ، وَإيذاءِ الرَّقيقِ، فَلَمّا أذِنَ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ بِالهِجْرَةِ إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ - كانَتْ صَفيَّةُ وابْنُها مِنْ أوائِلِ المُهاجِرينَ .

تَرَكَتْ « صَفيَّةُ » مَكَّةَ، وَما كانَ لَها فيها مِنْ ذِكْرَياتٍ،

وما كانَ يُحيطُ بها مِنْ مَفاخِرَ وَمآثِرَ . . تَركَتْ ذَلكِ وَ وَلَّتْ وَجْهَها شَطْرَ المَدينَةِ ؛ لِتَنعَمَ بِدينِها ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ قَسْوَةِ الحَياةِ ، وَشَظَفِ (خُشونَةِ) العَيْشِ !

* * *

كانَتْ « صَفيَّةُ » تَخطو نَحوَ السِّتّينَ عامًا ، وَقَدْ شَهِدَتْ عَوْدَةَ المُسْلِمينَ ظافِرينَ ، أجْرى اللهُ عَلى أيْديهِمُ النَّصْرَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأثْلَجَ ذَلكَ صَدْرَها ، وَأفْعَمَ بالسُّرورِ قَلْبَها . . فَلَمّا كانَتْ غَزْوَةُ أحُدٍ خَرَجَتْ مَعَ جَماعَةٍ مِنَ النِّساءِ ، تَسْقي الجُنودَ ، وَتَنْقُلُ الجَرْحى ، وَتَبْري السِّهامَ ، وَتُصْلِحُ القِسيَّ . . وَقَبْلَ ذَلكَ كُلِّهِ تَشْهَدُ المَعْرَكَةَ ، وَتُشارِكُ فيها بِروحِها وَمَشاعِرِها .

فَفي المَعْرَكَةِ مَصيرُ الإسْلامِ الَّذي ارْتَضَتْهُ دينًا ، وَهاجَرَتْ في سَبيلِهِ راضِيَةً . . وَفيها ابْنُ أخيها مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذي آمَنَتْ بِهِ رَسولاً ، وَتَبِعَتْهُ قائِدًا مَعْصومًا . . وَفيها ابْنُها الزُّبَيْرُ الَّذي أعَدَّتْهُ لِمِثْلِ هَذا اليَومِ فَأحْسَنَتْ

إعْدادَهُ . . وَفيها أخوها حَمْزَةُ الَّذي نَصَرَ الإسْلامَ وَرَسولَهُ مُنْذُ أوَّلِ يَوْمٍ أعْلَنَ فيهِ إسْلامَهُ ، وَالَّذي رَوى سَيْفَ الإسْلامِ مِنْ دِماءِ المُشْرِكينَ في بَدْرٍ ، فَكُلُّهُمْ مَوْتورٌ مِنْهُ ، ضائِقٌ بِهِ ، حَريصٌ عَلى قَتْلِهِ . . وَفيها ابْنُ أخيها عَلِيٌّ الَّذي فَدى الرَّسولَ بِنَفْسِهِ يَوْمَ الهِجْرَةِ ، وَكانَ الفارِسَ الَّذي لا يُبارى يَوْمَ بَدْرٍ ، وَالَّذي يُحِبُّهُ الرَّسولُ ﷺ حُبًّا جَمًّا .

وَشَهِدَتْ يَوْمَ أحُدٍ ، خَرَجَتْ وَمَعَها السِّقاءُ وَالضِّمادُ ، لِتَسْقِيَ وَتُضَمِّدَ ، وَرَأتِ المَعْرَكَةَ وَقَدْ سارَتْ في بِدايَتِها سَيْرًا حَسَنًا ، وَجَرَتْ ريحُها في صالِحِ المُسْلِمينَ . وَلَكِنْ ماذا تَرى صَفيَّةُ ؟ إنَّ المُسْلِمينَ يَنْهَزِمونَ وَيَفِرّونَ مِنْ حَوْلِ الرَّسولِ القائِدِ !

وَغَلَتِ الدِّماءُ في عُروقِها ، وَثارَتْ كِبْرِياؤُها في نَفْسِها ، وَراحَتْ تَتَلَقّى المُنْهَزِمينَ بِقَوْلِها :

« أتَنْهَزِمونَ عَنْ رَسولِ اللهِ ؟

« أَتُوَلّونَ الأَدْبارَ ؟ »

ثُمَّ طَوَّحَتْ بِالسِّقاءِ وَالضِّمادِ ، وَاخْتَطَفَتْ رُمْحًا مِنْ أَحَدِ المُنهَزِمينَ ، وَطَفِقَتْ تَطْعَنُ بِهِ في صُدورِ المُشْرِكينَ ، لا تَخْشى بَأْسًا ، وَلا تَرْهَبُ قُوَّةً !

وَحينَ انْجَلَتِ المَعْرَكَةُ ، وَأَخَذَ الرَّسولُ القائِدُ يَتَفَقَّدُ الشُّهَداءَ ، وَأَبْصَرَ حَمْزَةَ سَيِّدَ الشُّهَداءِ ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المُشْرِكونَ شَرَّ تَمْثيلٍ – هالَهُ أَنْ يَرى « صَفِيَّةَ » مُقْبِلَةً عَلَيْه ، وَإِذا هُوَ يَلْفِتُ نَظَرَ ابْنِها الزُّبَيْرِ ، وَيَقولُ لَهُ :

« أُمَّكَ . . أُمَّكَ . . »

فَأَسْرَعَ إِلَيْها الزُّبَيْرُ ، يَحولُ بَيْنَها وَبَيْنَ أَنْ تَتَقَدَّمَ ، وَيَقولُ لَها : « يا أُمّاهُ ! يا أُمّاهُ ! »

وَهِيَ تَمْضي إِلى الأَمامِ ، وَتَدْفَعُهُ بِيَدِها ، وَتَقولُ لَهُ :

« تَنَحَّ عَنّي ، لا أُمَّ لَكَ ! »

وَيَتَصَدّى لَها ابْنُها ، وَيَقولُ : « إِنَّ رَسولَ اللهِ يَأْمُرُكِ أَنْ تَرْجِعي . »

فَتَرُدُّ عَلَيْهِ ، في قُوَّةٍ وَإِباءٍ : « وَلِماذا أَرْجِعُ ؟ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُمْ مَثَّلوا بِأَخي ، وَذلِكَ في سَبيلِ اللهِ ! »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وَقَدْ رَأى عَزْمَها وَإِصْرارَها :

« خَلِّ سَبيلَها ، يا زُبَيْر . . خَلِّ سَبيلَها ! »

وَقَفَتْ صَفِيَّةُ عَلى أَخيها « حَمْزَةَ » ، وَرَأَتِ المُشْرِكينَ قَدْ مَثَّلوا بِهِ وَشَوَّهوا وَجْهَهُ تَشْويهًا مُنْكَرًا . . فَحَبَسَتْ دُموعَها ، وَقالَتْ : « لَقَدْ رَضيتُ بِقَضاءِ اللهِ !

« لأَصْبِرَنَّ عَلى المُصابِ ، وَلأَحْتَسِبَنَّ الأَجْرَ عِنْدَ اللهِ !

« إِنَّ ذلِكَ في سَبيلِ اللهِ ! »

وَعادَتِ المَرْأَةُ الصّابِرَةُ المُحْتَسِبَةُ إِلى المَدينَةِ ، وَقَدْ ضَرَبَتْ لِلنِّساءِ وَلِلرِّجالِ المَثَلَ الأَعْلى ، وَكانَتِ القُدْوَةَ الطَّيِّبَةَ ، وَالأُسْوَةَ الحَسَنَةَ ، يَتَأَسّى بِها أُولئِكَ الَّذينَ فَقَدوا الآباءَ أَوِ الأَبْناءَ أَوِ الأَزْواجَ !

* * *

وَتَمْـضي الأيّامُ ، وَصَـفِـيَّـةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْـهـا - ترى الإسْلامَ يَنْتَشِرُ بَيْنَ القَبـائِلِ ، وَتَرى قُـرَيْشًـا تُـحـاوِلُ أنْ تُحْدِقَ بِهِ ، وَتَتَحالَفَ مَعَ كُلِّ كارِهٍ لَهُ ، وَتَضَعَ يَدَها في يَدِ كُلِّ ضائِقٍ بِهِ ، حَتّى دَفَعَها الحِقْدُ والغَيْظُ إلى التَّحالُفِ مَعَ اليَهودِ ، وَتَجْميعِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ المُشْرِكَةِ لِغَزْوِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَحَصْرِ المُسْلِمينَ بَيْنَ اليَـهـودِ وَالمُشْرِكينَ فَـلا يَجِدونَ مَفَرًّا وَلا مَلاذًا ، وَحينَئِذٍ يَحْصُدونَهُمْ حَصْدًا ، وَيَقْضُونَ عَلَيهِمْ قَضاءً مُبْرَمًا . . كـانَ ذَلِكَ في غَزْوَةِ الخَنْدَقِ ، وَكانَ لِصَفِيَّةَ فيها دَوْرٌ عَظيمٌ !

فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ الرَّسولِ القائِدِ إذا تَوَجَّهَ لِغَزْوَةٍ مِنَ الغَـزَواتِ - جَـمْعُ النِّسـاءِ وَالأطْفـالِ ، وَ وَضْـعُـهُـمْ في الحُـصونِ ؛ لِيَكونوا في مَأمَنٍ ، لَوْ طَرَقَ المَدينَةَ عَدُوٌّ مِنَ الأعْداءِ ، أوْ غَدَرَ بِها غادِرٌ في غَيْبَةِ حُماتِها المُدافِعينَ عَنْها .

وَلَمّا كانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ وَضَعَ عَمَّتَهُ صَفِيَّةَ - رَضِيَ اللهُ

عَنْها - وَنِساءَهُ ، وَطائِفَةً مِنْ نِساءِ المُسْلِمينَ وَأطْفالِهِمْ في حِصْنٍ لِحَسّانَ بن ثابِتٍ ، وَرِثَهُ عَنْ آبائِهِ وَأجْدادِهِ ، وَكانَ هَذا الحِصْنُ مِنَ الحُصونِ القَوِيَّةِ المَنيعَةِ في المَدينَةِ .

وَكانَ يَهودُ بَني قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضوا العَهْدَ الَّذي كانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ ، وَناصَروا قُرَيْشًا وَمَنْ مَعَها مِنَ القَبائِلِ المُشْرِكَةِ ، وَبِذَلِكَ وَقَعَ المُسْلِمونَ بَيْنَ عَدُوٍّ أمامَهُمْ يَتَأهَّبُ لِلْهُجومِ عَلَيْهِمْ ، وَعَدُوٍّ مِنْ خَلْفِهِمْ يَنْتَظِرُ هَلاكَهُمْ .

وَبَيْنَمـا الرَّسولُ القائِدُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمينَ يُرابِطونَ أمامَ الخَنْدَقِ ، وَيَتَناوَشونَ مَعَ الأحْزابِ المُشْرِكَةِ المُتَجَمِّعَةِ خَلْفَ الخَنْدَقِ ، تَنْتَظِرُ الفُـرْصَـةَ المُواتِيَـةَ لِلْوُثوبِ وَالانْقِضاضِ عَلَيْهِمْ . . في هَذا الوَقْتِ كانَتْ « صَفِيَّةُ » - رَضِيَ اللهُ عَنْها - ساهِرَةً عَلى سَطْحِ الحِصْنِ ، تَخْشى عُدْوانَ المُعْتَدينَ ، وَغَدْرَ الغادِرينَ ، فَأبْصَرَتْ في عَتْمَةِ الفَجْرِ شَبَحًا يَتَحَرَّكُ في خِفَّةٍ وَهُدوءٍ ، وَيَطوفُ حَوْلَ الحِصْنِ ، كَأنَّهُ يَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ ، وَيَرْصُدُ أحْوالَهُ ، فَقالَتْ

في نَفْسِها لِنَفْسِها :

« لَعَلَّهُ مِنْ رِجالِ اليَهودِ ، يُحاوِلُ أنْ يَكْتَشِفَ ثُغْرَةً في الحِصْنِ ، يَنْفُذُ مِنْها إلى داخِلِه ، فَيَدُلُّ قَوْمَهُ عَلَيْها ، أوْ يُحاوِلُ التَّعَرُّفَ : هَلْ في الحِصْنِ قُوَّةٌ تَحْميهِ أمْ لَيْسَ فيهِ إلا النِّساءُ وَالأطْفالُ ؟

« إنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنا مِنَ الرِّجالِ أحَدٌ يَسْتَطيعُ الدِّفاعَ عَنّا ، وَلَوْ عَرَفَ الرَّجُلُ حَقيقَةَ أمْرِنا ، وَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ بِها - لَهَبّوا إلَيْنا مُسْرِعينَ ، وَأسَروا النِّساءَ وَالأطْفالَ ، وَأطْبَقوا عَلى الرَّسولِ وَالمُسْلِمينَ مِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدّام .

« لا بُدَّ مِنَ المُبادَرَةِ حَتّى لا تَكونَ الطّامَّةُ الكُبْرى عَلى المُسْلِمينَ . »

وَاسْتَقَرَّ عَزْمُ صَفِيَّةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - عَلى المُبادَرَةِ بِالعَمَلِ ، فَلَمْ تُضَيِّعْ وَقْتًا ، وَإنَّما شَدَّتْ ثِيابَها عَلى وَسْطِها ، وَلَفَّتْ خِمارَها عَلى رَأسِها ، وَأخَذَتْ عَمودًا مِنَ الحَديدِ عَلى عاتِقِها ، وَنَزَلَتْ مُسْرِعَةً إلى بابِ

الحِصْنِ ، وَنَظَرَتْ مِنْ ثُقوبِهِ بِبَصَرٍ حَديد ، وَكَتَمَتْ أنْفاسَها حَتّى لا يَشْعُرَ بِها اليَهودِيُّ ، وَانْتَظَرَتْ مُتَرَبِّصَةً أنْ يَمُرَّ مِنْ أمامِ الباب .

وَما إنْ أصْبَحَ الرَّجُلُ أمامَ بَصَرِها ، وَأيْقَنَتْ أنَّها في مَوْقِفٍ يُمَكِّنُها مِنْه - حَتّى فَتَحَتِ البابَ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، وَأهْوَتْ عَلى رَأسِهِ بِضَرْبَةٍ قادِرَةٍ ، وَعاجَلَتْهُ بِأخْرى قَبْلَ أنْ يُفيقَ وَيُدْرِكَ ، وَما زالَتْ بِهِ تَضْرِبُهُ بِعَمودِها حَتّى أخْمَدَتْ أنْفاسَهُ ، فَجَرَّتْهُ إلى داخِلِ الحِصْنِ ، وَأغْلَقَتِ البابَ .

وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ فَأضاءَتِ الكَوْنَ ، وَكانَ صَبْرُ اليَهودِ عَلى صاحِبِهِمْ قَدْ نَفِدَ ، فَخَرَجوا يَتَحَسَّسونَ خَبَرَهُ ، وَإذا بِهِمْ لا يَجِدونَ لَهُ أثَرًا ، فَالتَفَتَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في خَيْبَةٍ وَذُلٍّ ، وَقالوا :

« لَقَدْ عَلِمْنا أنَّ مُحَمَّدًا لا يَتْرُكُ الحُصونَ مِنْ غَيْرِ مُدافِعينَ عَنْها ! »

فِداءُ الأَسْرى

لَمْ يَكُنْ يَخطرُ ببالِه أنْ يُخلِّدَ التّاريخُ اسْمَهُ ، وأنْ يَكْتُبَهُ في صَفَحاتِهِ بحُروفٍ مِنْ نور ، ولَمْ يَكنْ يَدورُ بخاطِرِه أنَّ حَياتَهُ سَتُصْبحُ مِثالاً لِلْعِزَّةِ والكِبْرياء ، والتَّضحيَةِ والفِداءِ ، تَتناقلُها الأَجْيالُ ، ويَتَدارسُها أَبْناءُ الزَّمانِ .

فَهُوَ كغَيْرِهِ مِنَ المَلايينِ العَرَبيَّةِ ، الَّتي يَمُرُّ بِها التّاريخُ ، لا تَحْظى مِنْهُ بِنَظْرَةٍ ، وَلا تَفوزُ مِنْهُ بِكَلِمَةٍ . . ولَكِنَّهُ الإسْلامُ ! دَخَلَ هذا الرَّجُلُ العَرَبيُّ في الإسْلامِ ، وتَوهَّجَ قَلْبُهُ بالإيمانِ ، فَكانَتْ حَياتُهُ مَثَلاً مُضيئًا في الثَّباتِ عَلى المَبْدَإِ ، والوَفاءِ بالعَهْدِ .

وَأَتاحَ الإسْلامُ لِهذا الصَّحابيِّ الجَليلِ أَنْ يَلْقى أَكْبَرَ مَلِكَيْنِ في عَصْرِه ، وَهُما : كِسْرى مَلِكُ الفُرْسِ ، وَقَيْصَرُ

مَلِكُ الرُّوم ، وَكانَ لَهُ مَعَ كُلٍّ مِنْهُما مَوْقِفٌ ، سَجَّلَهُ التّاريخُ بِكُلِّ الفَخارِ والإجْلالِ لِواحِدٍ مِنْ أَبْناءِ الإسْلامِ .

في السَّنَةِ السابِعَةِ مِنَ الهِجْرَةِ – بَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ – جَمَعَ الرَّسولُ ﷺ أَصْحابَهُ ، وَخَطَبَهُمْ بِما مَعْناهُ :

إنَّهُ يَرْغَبُ في أنْ يُرْسِلَ إلى مُلوكِ العالَمِ وَرُؤَسائِهِ رَسائِلَ يَدْعوهُمْ فيها إلى الإسْلامِ ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِوَعْدِ اللهِ وَوَعيدِهِ .

فاسْتَجابَ الصَّحابَةُ لِرَغْبَتِهِ ﷺ ، وَقالوا لَهُ : « نَحْنُ ، يا رَسولَ اللهِ ، طَوْعُ أَمْرِكَ ، فابْعَثْنا كَما تُريدُ ، نُؤَدِّ عَنْكَ رَسائِلَكَ إنْ شاءَ اللهُ . »

كانَ الرَّسولُ ﷺ يُدْرِكُ خُطورَةَ المُهِمَّةِ ، وَصُعوبَةَ الرِّحْلَةِ ؛ فَأَصْحابُهُ سَيَرْحَلونَ إلى بِلادٍ لَعَلَّهُمْ لَمْ يَرْحَلوا إلَيْها مِنْ قَبْلُ ، وَسَيَلْتَقونَ بِمُلوكٍ تَعَوَّدوا السُّلْطَةَ والجاهَ ، وَتَجَبَّرَ كَثيرٌ مِنْهُمْ في الأَرْضِ عَلى خَلْقِ اللهِ ،

وَسَيَدْعونَهُمْ إلى مُفارَقَةِ أَدْيانِهِمْ، وَالدُّخولِ في دينٍ جَديدٍ، خَرَجَ نَبِيُّهُ الدّاعي إِلَيْهِ مِنَ العَرَبِ، الَّذين لَمْ تَكُنْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَلا سُلْطانٌ مِنْ قَبْلُ؛ وَإِنَّما بَعْضُ قَبائِلِهِمْ يَدينُ بِالوَلاءِ لِلرُّومِ، في حينِ يَدينُ بَعْضٌ آخَرُ بِالوَلاءِ لِلْفُرْسِ. إِنَّها مُهِمَّةٌ شاقَّةٌ خَطيرَةٌ، الذّاهِبُ فيها مَفْقودٌ، وَالعائِدُ مِنْها مَوْلودٌ، كَما يَقولونَ!

وَاخْتارَ الرَّسولُ القائِدُ سِتَّةً مِنَ الصَّحابَةِ لِيَحْمِلوا رَسائِلَهُ إِلى مُلوكِ العَرَبِ وَالفُرْسِ وَالرُّومِ، أَوْ كَما كانَ العَرَبُ يُطْلِقونَ عَلَيْهِمْ «مُلوكِ العَجَمِ»؛ لِأَنَّهُمْ لا يَتَكَلَّمونَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ.

وَكانَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ السِّتَّةِ «عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذافَةَ السَّهْمِيّ» الَّذي نُدير حَوْلَهُ هَذا الحَديثَ، وَكانَ مِنْ حَظِّهِ أَنْ يَبْعَثَهُ الرَّسولُ القائِدُ إِلى كِسْرى مَلِكِ الفُرْسِ.

جَهَّزَ «عَبْدُ اللهِ» راحِلَتَهُ، وَأَعَدَّ لِلرِّحْلَةِ عُدَّتَهُ، وَانْطَلَقَ

تَرْفَعُهُ النِّجادُ (الأَرْضُ المُرْتَفِعَةُ)، وَتَحُطُّهُ (المُنْخَفِضَةُ)، تَرْعاهُ عِنايَةُ اللهِ. وَيُؤْنِسُهُ - في وَحْدَتِهِ - ذِكْرُهُ، حَتّى بَلَغَ بِلادَ الفُرْسِ، وَعَرَفَ طَريقَ قَصْرِ المَلِكِ. وَلَمّا وَقَفَ بِبابِ القَصْرِ أَخْبَرَ الحاشِيَةَ بِمُهِمَّتِهِ، وَاسْتَأْذَنَ في الدُّخولِ عَلى المَلِكِ.

أَمَرَ كِسْرى الحاشِيَةَ بِأَنْ يُزَيِّنوا مَجْلِسَهُ، حَتّى تَبْدُوَ عَلَيْهِ العَظَمَةُ وَالجَلالُ، وَأَنْ يُدْعَى إِلى المَجْلِسِ كُلُّ عُظَماءِ الدَّوْلَةِ، وَأَنْ يَرْتَدوا أَفْخَرَ ثِيابِهِمْ؛ حَتّى يَبْهَرَ المَنْظَرُ المُجْتَمِعُ مِنَ الدّيوانِ وَالعُظَماءِ هَذا البَدَوِيَّ العَرَبِيَّ، فَيَتَقاصَرَ عَزْمُهُ، وَتَضْعُفَ إِرادَتُهُ، وَيُدْرِكَ خَطَأَهُ في تَصَوُّرِهِ.

تَهَيَّأَ المَجْلِسُ لاسْتِقْبالِ «عَبْدِ اللهِ»، فَأَذِنَ المَلِكُ كِسْرى لَهُ بِالدُّخولِ، فَدَخَلَ وَقَدْ لَفَّ جِسْمَهُ بِكِساءٍ رَقيقٍ، فَوْقَهُ عَباءَةٌ خَشِنَةٌ بَسيطَةٌ، تَبْدو عَلَيْهِ مُعاناةُ السَّفَرِ، وَآثارُ وُعورَةِ الطَّريقِ، وَلَكِنَّهُ يَخْطو إِلى الدّيوانِ رافِعَ الرَّأْسِ،

شامخَ الأنفِ، في عِزَّةِ المُسْلِمِ وكِبْريائِهِ، لَمْ نبْهَرْهُ المَناظِرُ التَّي أعَدَّها المَلِكُ وحاشيتُهُ، ولَمْ يأْخُذْ بَصرَهُ بريقُ الذَّهَبِ في الإيوانِ ولَمعانِهِ.

أَبْصَرَهُ المَلِكُ كِسْرى مُقْبِلاً عَلَيْهِ، في عِزَّةٍ وإباءٍ، وأَنَفَةٍ وكِبْرِياءَ، فَأَوْمَأَ إلى واحِدٍ مِنْ أَتْباعِهِ؛ كَيْ يأْخُذَ الرِّسالَةَ مِنْهُ، ولا يُبيحَ لَهُ التَّقَدُّمَ خُطْوَةً أُخْرى، لَكِنَّ «عَبْدَ اللهِ» أزاحَ يَدَ الرَّجُلِ المَمْدودَةَ في هُدوءٍ ولِينٍ، وقالَ:

«لَقَدْ أَمَرَني رَسولُ اللهِ أَنْ أُسَلِّمَ الرِّسالَةَ إلى المَلِكِ يَدًا بِيَدٍ، ولَنْ أُخالِفَ أَمْرَ رَسولِ اللهِ.»

عِنْدَئِذٍ أَمَرَ المَلِكُ عَوْنَهُ أَنْ يُفْسِحَ لِعَبْدِ اللهِ الطَّريقَ، وأَنْ يَجْعَلَهُ يَتَقَدَّمُ مِنْهُ، كَيْ يَتَسَلَّمَ مِنْهُ الرِّسالَةَ كَما أَمَرَهُ صاحِبُهُ.

تَقَدَّمَ «عَبْدُ اللهِ» فَلَمْ يُحْنِ لِلْمَلِكِ رَأْسَهُ، ولَمْ يَسْجُدْ لَهُ كَما كانَ يَفْعَلُ أَتْباعُهُ؛ فَقالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: «أَيُّها

الأَعْرابِيُّ، لِماذا لا تَسْجُدُ لِلْمَلِكِ؟»

أَجابَ «عَبْدُ اللهِ» في كِبْرِياءَ:

«إنَّ دينَنا يَأْمُرُنا بالسُّجودِ للهِ وَحْدَهُ، ويُحَرِّرُنا مِنَ العُبوديَّةِ لِغَيْرِهِ، فَنَحْنُ لا نُحْني رُءوسَنا إلا للهِ!»

مَدَّ المَلِكُ يَدَهُ، وأَخَذَ الرِّسالَةَ، وأَمَرَ واحِدًا مِنَ المُتَرْجِمينَ بِقِراءَتِها، وما إنْ سَمِعَ الجُمَلَ الأولى مِنْها حَتَّى تَقَبَّضَ وَجْهُهُ، وتَغيرَ لَوْنُهُ، وبَدا عَلى وَجْهِهِ الغَضَبُ؛ فَقَدِ امْتَلأَ صَدْرُهُ حَنَقًا، واسْتَشاطَ غَيْظًا؛ لأَنَّ الرَّسولَ ﷺ بَدَأَ الرِّسالَةَ بِنَفْسِهِ، ولَمْ يَبْدَأْ بِكِسْرى مَلِكِ الفُرْسِ، حَيْثُ قالَ:

«بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ إلى كِسْرى عَظيمِ فارِسَ.

سَلامٌ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدى..»

واجْتَذَبَ كِسْرى الرِّسالَةَ مِنْ قارِئِها، وراحَ - في حَمِيَّةِ

غَضَبِهِ، وَشِدَّةِ ثَوْرَتِهِ - يُمَزِّقُها مِزَقًا صَغيرَةً، وَيَرْمي بِها عَلى الأَرْضِ، دونَ أَنْ يَعْرِفَ مُحْتَواها، وَهُوَ يَصيحُ في انْفِعالٍ: «كَيْفَ يَجْرُؤُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ، وَهُوَ عَبْدي ؟!»

ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ «عَبْدُ اللهِ» حامِلُ الرِّسالَةِ مِنَ المَجْلِسِ، فَأَخْرَجَهُ الأَعْوانُ في عُنْفٍ وَقَسْوَةٍ!

خَرَجَ «عَبْدُ اللهِ» مِنْ مَجْلِسِ كِسْرى، وَهُوَ لا يَدْري: هَلْ يُتاحُ لَهُ أَنْ يَرْحَلَ إِلى بِلادِهِ، فَيَنْقُلَ إِلى رَسولِ اللهِ ما رَآهُ؛ أَمْ أَنَّ كِسْرى سَوْفَ يَأْمُرُ بِقَتْلِهِ؟

لَمْ يَكُنْ يَخْشى القَتْلَ، وَلا يَخافُ المَوْتَ؛ فَقَدْ بَلَّغَ الرِّسالَةَ كَما أَمَرَهُ الرَّسولُ القائِدُ، وَلَكِنَّهُ كانَ يَوَدُّ أَنْ يَنْقُلَ إِلى الرَّسولِ القائِدِ ما رَآهُ.

لَمْ يَحْبِسْهُ الفُرْسُ، وَلَمْ يُقيموا عَلَيْهِ حُرّاسًا، وَإِنَّما اكْتَفَوْا بِإِخْراجِهِ مِنَ المَجْلِسِ، فَوَجَدَ الفُرْصَةَ سانِحَةً

أَمامَهُ، فَرَكِبَ ناقَتَهُ، وَانْطَلَقَ يُغِذُّ السَّيْرَ في طَريقِهِ إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ، لا يُريحُ راحِلَتَهُ وَلا يَسْتَريحُ.

سَكَتَ عَنْ كِسْرى الغَضَبُ، وَهَدَأَتْ ثَوْرَتُهُ، وَتَمالَكَ نَفْسَهُ، فَأَمَرَ أَتْباعَهُ أَنْ يُدْخِلوا «عَبْدَ اللهِ» عَلَيْهِ؛ فَأَسْرَعوا يَسْتَدْعونَهُ، فَلَمْ يَجِدوهُ، فَأَسْرَعوا يَبْحَثونَ عَنْهُ في الطَّريقِ إِلى بِلادِ العَرَبِ، وَلَكِنَّهُ كانَ قَدْ سَبَقَهُمْ وَابْتَعَدَ كَثيرًا، فَلَمْ يُدْرِكوهُ، وَلَمْ يَعْثُروا لَهُ عَلى أَثَرٍ، وَارْتَدُّوا عَلى أَعْقابِهِمْ مَحْسورينَ!

وَصَلَ «عَبْدُ اللهِ» إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ سالِمًا، وَقَدِمَ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ، وَأَنْبَأَهُ بِما كانَ مِنْ أَمْرِ كِسْرى، وَتَمْزيقِهِ الرِّسالَةَ، وَثَوْرَتِهِ وَانْفِعالِهِ، فَما زادَ الرَّسولُ ﷺ عَلى أَنْ قالَ: «مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ.»

* * *

ضاقَ كِسْرى ضيقًا شَديدًا، وَاغْتاظَ غَيْظًا عَنيفًا، وَثارَ

ثَوْرَةً عارِمَةً على أَتْباعِهِ ؛ لأنَّ « عَبْدَ اللهِ » قَدْ نَجا مِنْ شَرِّهِ، وَفَرَّ مِنْ كَيْدِهِ ، واتَّهَمَ أَعْوانَهُ بالضَّعْفِ وَالجُبْنِ ، وَ وَصَفَهُمْ بِالغَفْلَةِ والحُمْق ، ثُمَّ أَخَذَ يُفَكِّرُ تفكيرًا عميقًا ؛ لَعَلَّهُ يَهْتَدي إلى الوَسيلَةِ الَّتي يُؤَدِّبُ هؤلاءِ العَرَبَ البَدْوَ، الَّذين تَجَرَّءوا عَلَيْهِ، وَبَعَثوا إلَيْهِ رَجُلا لا يُطَأْطِئُ الرَّأْسَ أمامَهُ، وَلا يَذِلُّ لِعُنْفُوانِه .

وَهَداهُ تَفْكيرُهُ أَنْ يَكْتُبَ إلى « باذان » الَّذي يَحْكُمُ اليَمَنَ نائِبًا عَنْهُ، يَأْمُرُهُ أَنْ يُرسِلَ مِنْ عِنْدِهِ رَجُلَيْنِ شَديدَيْنِ إلى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذي ظَهَرَ في الْحِجازِ، يَدْعو إلى دينٍ جَديدٍ، وَبَلَغَتْ جَسارَتُهُ أَنْ يُرسِلَ مَنْ يَدْعو كِسْرى إلى دينِهِ - فَيَأْتِيانِ بِهِ مُقَيَّدًا مَغْلولاً .

لَمْ يَسْتَطِعْ « باذان » أَنْ يَعْصِيَ أَمْرَ سَيِّدِهِ، فَأَسْرَعَ باخْتيارِ رَجُلَيْنِ مِنْ أَتْباعِهِ، آتاهُما اللهُ بَسْطَةً في الجِسْمِ : طُولاً في القامَةِ، وَعَرْضًا في المَنْكِبَيْنِ، وَفَتْلاً في العَضَلِ، وَمَهارَةً في الفُروسِيَّةِ - وَأَمَرَهُما أَنْ يُنَفِّذا ما أَمَرَ

بِهِ السَّيِّدُ المُطاعُ المَلِكُ كِسْرى، وَأَنْ يَتَقَصَّيا خَبَرَ هَذا الرَّجُلِ، وَيَعْلَما حقيقَتَهُ .

قَدِمَ الرَّجُلانِ إلى جَزيرَةِ العَرَبِ ، فَلَمّا كانا بالطّائِفِ الْتَقَيا بِبَعْضِ التُّجّارِ، فَسَأَلاهُمْ عَنْ « مُحَمَّد » ، فَأَخْبَروهُمْ أَنَّهُ في « يَثْرِبَ » وَأَسْرَعَ التُّجّارُ إلى قُرَيْشٍ يَزُفُّونَ البُشْرى ؛ فَإِنَّ كِسْرى مَلِكَ المُلوكِ قَدْ تَكَفَّلَ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ، وَ سَيُريحُ قُرَيْشًا مِنْ هَمِّهِ ، فَهُوَ وَمَنْ مَعَهُ لا يَسْتَطيعونَ الصُّمودَ في وَجْهِ مَلِكِ الفُرْسِ وَجَيْشِهِ .

وَقَصَدَ الرَّجُلانِ المَدينَةَ ، حَتَّى إذا بَلَغاها سَأَلا عَنْ مُحَمَّدٍ، فاقْتادَهُما بَعْضُ المُسْلِمينَ إلى المَسْجِدِ، وَهُناكَ الْتَقَيا بِرَسولِ اللهِ ﷺ ، فَقالا لَهُ :

« إنَّ كِسْرى مَلِكَ المُلوكِ قَدْ بَعَثَ إلى مَلِكِنا « باذان » لِكَيْ يَبْعَثَ بِنا إلَيْكَ لِنَحْمِلَكَ إلى كِسْرى مَلِكِ المُلوكِ، فَإِنِ اتَّبَعْتَنا دونَ مُقاوَمَةٍ كَلَّمْنا مَلِكَنا فيكَ لِيَكونَ بِكَ

رَحيمًا ، وَإنْ خالَفْتَ عَنْ أَمْرِهِ فَأَنْتَ تَعْلَمُ قُوَّتَهُ وَسَطْوَتَهُ ، وَشِدَّتَهُ وَجَبروتَهُ ، وَلَنْ تَسْتَطيعَ أَنْ تَنْجُوَ مِنْ بَطْشِهِ ، وَلَنْ يَأْمَنَ أَهْلُكَ مِنْ بَأْسِهِ . »

نَظَرَ الرَّسولُ ﷺ إلى الرَّجُلَيْنِ نَظْرَةَ إشْفاقٍ وَحُنُوٍّ ، ثُمَّ قالَ لَهُما :

« اِذْهَبا إلى رَحْلَيْكُما الآنَ ، ثُمَّ احْضُرا إذا كانَ الغَدُ . »

فَلَمّا جاءَ الغَدُ قالا لَهُ : « لَعَلَّكَ راجَعْتَ نَفْسَكَ ، وَ وَجَدْتَ مِنَ الخَيْرِ لَكَ وَلأَهْلِكَ أَنْ تَمْضِيَ مَعَنا في هُدوءٍ لِلِقاءِ مَلِكِ المُلوكِ . وَسَنَرْجو مَلِكَنا أَنْ يُكَلِّمَهُ فيكَ ، فَيَرْفُقَ بِكَ . »

اِبْتَسَمَ الرَّسولُ ﷺ ، ثُمَّ قالَ لَهُما : « لا تَنْزَعِجا ، فَلَنْ تَلْقَيا كِسْرى بَعْدَ اليَوْمِ ؛ فَقَدْ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ ابْنَهُ « شِيرَوَيْهِ » فَقَتَلَهُ في لَيْلَةِ كَذا مِنْ شَهْرِ كَذا . »

حَدَّقَ الرَّجُلانِ في وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَلَتْ وَجْهَيْهِما

الدَّهْشَةُ ، وَأَصابَهُما الذُّهولُ ، وَعَقَدَتِ المُفاجَأَةُ لِسانَيْهِما .

وَبَعْدَ لَحَظاتٍ مِنَ الصَّمْتِ المُطْبِقِ قالا لَهُ :

« أَتَدْري ما تَقولُ ؟ أَتُدْرِكُ هَوْلَهُ ؟ هَلْ نَسْتَطيعُ أَنْ نُخْبِرَ مَلِكَنا (باذان) بِما تَقولُ ؟ »

فَأَجابَهُما الرَّسولُ الكَريمُ : « نَعَمْ ، وَقولا لِسَيِّدِكُما : إنَّ الإسْلامَ سَيَبْلُغُ مُلْكَ كِسْرى ، وَيَنْتَشِرُ فيهِ ، وَإنَّهُ إذا دَخَلَ في الإسْلامِ وَلَّيْتُهُ عَلى قَوْمِهِ . »

اِنْطَلَقَ الرَّجُلانِ إلى مَلِكِهِما « باذان » ، فَلَمّا دَخَلا عَلَيْهِ عَبَسَ في وَجْهَيْهِما ، وَنَظَرَ إلَيْهِما نَظْرَةً عَنيفَةً قاسِيَةً ، وَقالَ لَهُما : « أَيْنَ الرَّجُلُ الَّذي أَمَرْتُكُما أَنْ تَأْتِيا بِهِ ؟ أَهُوَ مِنَ القُوَّةِ بِحَيْثُ لَمْ تَقْدِرا عَلَيْهِ ؟ هَلْ بَلَغَ بِكُما الجُبْنُ أَنْ تَعْصِيا أَمْري ؟ »

اِلْتَقَطَ الرَّجُلانِ أَنْفاسَهُما ، ثُمَّ قالا لَهُ : « مَهْلًا ، يا سَيِّدَنا ، فَإنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَخْبَرَنا أَنَّ « كِسْرى » قَدْ قُتِلَ -

قَتلَهُ ابْنُهُ ‹‹ شيرَوَيْه ›› فَجِئْناكَ بِهذا الخَبَرِ . »

ثابَ « باذان » إلى رُشْدِهِ ، وَقالَ : « إنْ كانَ ما أَخْبَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ حقًا فهُوَ نبيٌّ صادِقٌ ، وَإنْ لَمْ يكُنْ كَذلِكَ فَسَيَكونُ لي مَعَهُ شَأْنٌ . »

وَلَمْ يَلْبَثْ إلا أيّامًا مَعْدودَةً حَتَّى جاءَهُ الخَبَرُ مِنْ « شِيرَوَيْهِ » يَقولُ لَهُ : « إنَّني قَتَلْتُ ‹‹ كِسْرى ›› انْتِقامًا لِلأَهْلِ وَالوَطَنِ ؛ فَقَدْ قَتَلَ أَشْرافَنا ، وَهَتَكَ أَعْراضَنا ، وَاسْتَبَدَّ بِأَمْوالِنا . فَإذا وَصَلَتْكَ رِسالتي هَذِهِ فَخُذْ لِيَ الطّاعَةَ مِمَّنْ عِنْدَكَ . »

وَلَكِنَّ « باذان » لَمْ يَأْخُذِ الطّاعَةَ لِمَلِكِ الفُرْسِ الجَديدِ ، بَلْ طَرَحَ رِسالَتَهُ بَعيدًا ، وَنَهَضَ مِنْ فَوْرِهِ ، فَأَعْلَنَ دُخولَهُ في الإسْلامِ . وَلَمْ يُسْلِمْ « باذان » وَحْدَهُ ، بَلْ أَسْلَمَ كُلُّ مَنْ كانَ مَعَهُ مِنَ الفُرْسِ في بِلادِ اليَمَنِ .

* * *

مَضى عَلى هَذا المَشْهَدِ الجليلِ ثَلاثَةَ عَشَرَ عامًا ، وَ« عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذافَةَ السَّهْمِيّ » يُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ ، لا تَلينُ لَهُ قَناةٌ ، وَلا تَكِلُّ مِنْهُ يَدٌ ، حَتَّى وافَتِ السَّنَةُ التّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ ، في عَهْدِ الخَليفَةِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، وَكانَتْ جُيوشُ المُسْلِمينَ تَدُقُّ أَبْوابَ البِلادِ الرُّومِيَّةِ دَقًّا عَنيفًا ، وَضَرَباتُهُمْ تَدُكُّ الحُصونَ دَكًّا شَديدًا ؛ فَتُفْتَحُ الأَبْوابُ بابًا بَعْدَ باب ، وَتَتَهاوى الحُصونُ حِصْنًا إثْرَ حِصْنٍ ، وَتَتَفَتَّحُ القُلوبُ ، وَتَنْشَرِحُ الصُّدورُ لِمَبادِئِ الإسْلامِ ، الَّتي تَقْتَحِمُ الأَفْئِدَةَ ، وَتَسْكُنُ النُّفوسَ ، فَتَغْمُرُها الطُّمَأْنينَةُ ، وَيَعُمُّها الانْسِجامُ مَعَ كُلِّ عَناصِرِ الكَوْنِ ، وَمَظاهِرِ الحَياةِ .

وَتَأَكَّدَ لَدى الرُّومِ أَنَّ قُوَّةَ المُسْلِمينَ تَكْمُنُ في مَبادِئِهِمْ ، وَفي ثَباتِهِمْ عَلَيْها ، وَصِدْقِهِمْ في التِزامِها ، فَهُمْ يَبْذُلونَ أَرْواحَهُمْ هَيِّنَةً في سَبيلِها ، لا يَعْرِفُ الخَوْفُ إلى صُدورِهِمْ طَريقًا ، وَلا يَسْتَطيعُ الفَزَعُ أَنْ يَتَسَلَّلَ إلى

نُفوسِهِمْ ؛ فَهُمْ يَحْرِصونَ عَلى المَوْتِ أَشَدَّ مِنْ حِرْصِهِمْ عَلى الحَياةِ ؛ فَأَمَرَ « قَيْصَرُ » مَلِكُ الرُّومِ جُنودَهُ إذا ظَفِروا بِأَسيرٍ مُسْلِمٍ ألا يَقْتُلوهُ، وَأَنْ يَأْتوهُ بِهِ حَيّا، وَأَضْمَرَ في نَفْسِهِ أَنْ يَبْلُوَ مَدى ثَباتِ هَؤُلاءِ المُسْلِمينَ عَلى مَبادِئِهِمْ، وَمَدى قُدْرَتِهِمْ عَلى مُقاوَمَةِ إغْراءِ الجاهِ وَالمالِ وَالسُّلْطانِ .

وَشاءَت إرادَةُ اللهِ أَنْ يَقَعَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذافَةَ السَّهمِيُّ » في يَدِ الرُّومِ أَسيرًا ، فَجاءوا بِهِ مَلِكَهُمْ ، وَقالوا لَهُ : « لَقَدْ وَقَعَ هَذا أَسيرًا في أَيْدينا ، وَهُوَ مِنَ السّابِقينَ إلى الإسْلامِ ، وَقَدْ جِئْناكَ بِهِ . »

قالَ لَهُمْ « قَيْصَرُ » : « خَلُّوا عَنْهُ ، وَفُكُّوا وَثاقَهُ . »

ثُمَّ نَظَرَ إلى « عَبْدِ اللهِ » نَظْرَةً فاحِصَةً ، ثُمَّ بادَرَهُ بِقَوْلِهِ : « يا هَذا ، إنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَمْرًا . »

قالَ عَبْدُ اللهِ : « وَما هُوَ ؟ »

قالَ المَلِكُ : « أَنْ تَتْرُكَ دينَكَ ، وَأَعْفُوَ عَنْكَ ، وَأُكْرِمَكَ

إكْرامًا جَزيلاً . »

قالَ « عَبْدُ اللهِ » في صِدْقٍ وَإباءٍ : « إنَّ المَوْتَ - أَيُّها المَلِكُ - أَحَبُّ إلَيَّ مِمّا تَعْرِضُهُ عَلَيَّ . »

قالَ المَلِكُ : « إنِّي أَرى فيكَ شَهامَةً وَجَسارَةً ، وَجُرْأَةً وَمُروءَةً ، فَإنْ أَطَعْتَني وَخَرَجْتَ مِنْ دينِ الإسْلامِ - أَشْرَكْتُكَ في أَمْري ، وَجَعَلْتُكَ وَزيرًا تَشُدُّ أَزْري ، وَلا أَقْطَعُ أَمْرًا دونَكَ . »

قالَ « عَبْدُ اللهِ » في أَنَفَةٍ وَحَزْمٍ : « اِعْلَمْ - أَيُّها المَلِكُ - أَنَّكَ لَوْ أَعْطَيْتَني جَميعَ مَمالِكِ الأَرْضِ - ما رَجَعْتُ عَنْ ديني طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلا أَقَلَّ مِنْها ! »

قالَ المَلِكُ في هُدوءٍ وَأَناةٍ ، لِيَعْرِفَ وَقْعَ كَلِماتِهِ في نَفْسِ « عَبْدِ اللهِ » ، وَلِيَرى أَثَرَها عَلى وَجْهِهِ : « إذًا لا مَفَرَّ مِنْ قَتْلِكَ . »

قالَ « عَبْدُ اللهِ » في صَبْرٍ وَهُدوءٍ : « أَنْتَ وَشَأْنُكَ . »

أَمَرَ « قَيْصَرُ » مَلِكُ الرُّومِ بِعَبْدِ اللهِ أَنْ يُصْلَبَ، ثُمَّ قَالَ لِلْقَنَّاصَةِ بِالرُّومِيَّةِ: « ارْمُوهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ. »

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كَانَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ مُفَارَقَةَ دِينِهِ، فَيَأْبَى « عَبْدُ اللهِ » أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ.

فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْقَنَّاصَةِ: « ارْمُوهُ قَرِيبًا مِنْ رِجْلَيْهِ. »

وَهُوَ يُعَاوِدُ عَلَيْهِ عَرْضَهُ، فَيَأْبَى « عَبْدُ اللهِ » أَنْ يَسْتَجِيبَ، وَيُرَدِّدُ الشَّهَادَتَيْنِ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ.

فَقَالَ الْمَلِكُ لِجُنُودِهِ: « أَنْزِلُوهُ. »

ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِقِدْرٍ عَظِيمَةٍ، مُلِئَتْ زَيْتًا، وَوُضِعَتْ عَلَى النَّارِ الْمُوقَدَةِ، حَتَّى غَلَى الزَّيْتُ غَلَيَانًا شَدِيدًا، ثُمَّ أَمَرَ بِأَسِيرٍ مِنَ الْأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ، فَقُذِفَ فِي هَذَا الزَّيْتِ الْمَغْلِيِّ - فَإِذَا لَحْمُهُ يَتَفَتَّتُ، وَإِذَا عِظَامُهُ تَبْدُو عَارِيَةً.

ثُمَّ عَرَضَ عَلَى « عَبْدِ اللهِ » مُفَارَقَةَ دِينِ الْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ رَأَى بِعَيْنَيْهِ مَا حَدَثَ لِصَاحِبِهِ، وَلَكِنَّ « عَبْدَ اللهِ » كَانَ

أَكْثَرَ إِبَاءً، وَأَشَدَّ اسْتِمْسَاكًا بِدِينِهِ!

فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُلْقَى فِي الزَّيْتِ كَمَا أُلْقِيَ صَاحِبُهُ مِنْ قَبْلِهِ.

فَلَمَّا أَمْسَكَ بِهِ الْجُنُودُ، وَتَأَهَّبُوا لِقَذْفِهِ فِي الْقِدْرِ - دَمَعَتْ عَيْنَاهُ.

فَقَالُوا لِلْمَلِكِ: « لَقَدْ بَكَى! »

فَظَنَّ الْمَلِكُ أَنَّ « عَبْدَ اللهِ » قَدْ أَصَابَهُ الْجَزَعُ، وَمَسَّهُ الْخَوْفُ، فَقَالَ لَهُمْ: « أَرْجِعُوهُ. »

ثُمَّ قَالَ لَهُ: « اخْرُجْ مِنْ دِينِكَ، وَأَنَا أَعْفُو عَنْكَ. »

وَلَكِنَّ « عَبْدَ اللهِ » كَانَ أَقْوَى إِبَاءً، وَأَشَدَّ نُفُورًا مِنْ هَذَا الَّذِي يَعْرِضُهُ الْمَلِكُ.

فَصَاحَ بِهِ الْمَلِكُ: « وَيْحَكَ! مَا الَّذِي يُبْكِيكَ إِذًا؟ »

قَالَ « عَبْدُ اللهِ » فِي هُدُوءٍ وَأَنَاةٍ:

« قُلْتُ في نَفْسي : الآنَ يَقْذِفُ بِكَ الجُنودُ في هَذِهِ القِدْرِ، فَتَذْهَبُ نَفْسُكَ، وتَموتُ، وَقَدْ كُنْتُ أَتَمَنَّى أنْ يَكونَ لي أَنْفُسٌ بِعَدَدِ ما في جَسَدي مِنْ شَعْرٍ، فَتُقْذَفَ كُلُّها في هَذِهِ القِدْرِ في سَبيلِ اللهِ . »

لَمْ يَجِدْ مَلِكُ الرُّومِ بُدًّا مِنَ الإعْجابِ بِهَذِهِ البُطولَةِ الخارِقَةِ، وَالبَسالَةِ النّادِرَةِ، فَقالَ لِعَبْدِ اللهِ : « يا هَذا، تُقَبِّلُ رَأْسي، فَأَعْفو عَنْكَ، وَأُخَلِّي سَبيلَكَ . »

فَقالَ « عَبْدُ اللهِ » لِلْمَلِكِ : « وَتَعْفو عَنْ جَميعِ الأَسْرى المُسْلِمينَ، وَتُخَلِّي سَبيلَهُمْ ؟ »

قالَ المَلِكُ : « لَكَ ذَلِكَ . »

قالَ « عَبْدُ اللهِ » في نَفْسِهِ : « عَدُوٌّ مِنْ أَعْداءِ اللهِ، أُقَبِّلُ رَأْسَهُ، فَيَعْفو عَنّي وَعَنْ جَميعِ الأَسْرى مِنَ المُسْلِمينَ، وَيُخَلِّي سَبيلَنا، فَنَعودُ إلى الجِهادِ وَإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ - لا ضَيْرَ عَلَيَّ في ذَلِكَ . »

ثُمَّ دَنا « عَبْدُ اللهِ » مِنَ المَلِكِ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ .

فَأَمَرَ المَلِكُ بِأَنْ يُحْضِروا جَميعَ الأَسْرى المُسْلِمينَ، ثُمَّ يَدْفَعوهُمْ إلى « عَبْدِ اللهِ » .

وَانْطَلَقَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذافَةَ السَّهْمِيُّ » بِأَصْحابِهِ إلى الجَيْشِ الإسْلامِيِّ، يُجاهِدونَ تَحْتَ لِوائِهِ، وَيَرْفَعونَ رايَةَ الإسْلامِ مَنارَةً تُضيءُ طَريقَ الرُّشْدِ لِلْعالَمينَ .

وَلَمّا قَدِمَ « عَبْدُ اللهِ » عَلى أَميرِ المُؤْمِنينَ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ، وَرَوى لَهُ خَبَرَهُ، نَظَرَ إلَيْهِ « عُمَرُ » نَظْرَةً مَمْلوءَةً بِالحُبِّ وَالإجْلالِ، وَقالَ :

« حَقٌّ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللهِ . وَأَنا أَبْدَأُ بِذَلِكَ . »

ثُمَّ قامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَقَبَّلَ رَأْسَ « عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذافَةَ السَّهْمِيِّ » .



سِلسلة تربويّة تثقيفيّة إسلاميّة

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه



مكتبة لبنان ناشرون

الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان